



موسى عبد الحليم عبد الله

حديقة  
الجنة

محمود

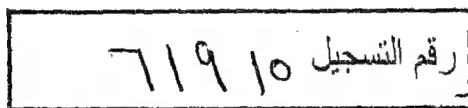
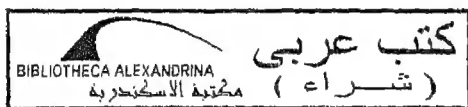


حَسَنَةُ الْبَحْرِ



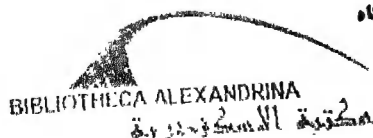
# حافز البحر الميت

محمد عبد الحليم عبد الله



مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صديقي - الجيزة

دار مصر للطباعة  
سعيد جودة السحار وشركاه





حَسَاؤُةُ الْبَحْرِ مَيَّة

لم يكن على شاطئ النيل أحد في هذه اللحظة ، وكان سائرا يملؤه  
الخوف ولو أن الشمس لم تغرب بعد . وحقول القمح في أيامها الأخيرة  
.. سنابل تنتظر الحصاد ، وكرم نخل يلوح من قريب جذوعه في لون تربة  
الأرض .

لا يدري إلى أين يذهب ، وحتى الخاطر الذى يزلزله ليس مستطيعا  
أن يبوح به لأحد . لأن مجرد البوح به يعنى وقوع جريمة في التو  
واللحظة . صرخة امرأة أو صياح رجل تعقبه حوادث لا يمكنه وقفها ..  
حوادث مثل الطوفان .

وهو لذلك يمشى الهويناء وقد كتم خواطره .. يكاد يكتمها حتى عن  
نفسه ، لكنه مزلول من الداخل ، ففى عين امرأة شك خطير حين  
همست له بهذا الخاطر فوضع كفه على فمها بحركة لا إرادة فيها . كأنما  
يمنع الفأل السيئ أو ليتقى وقوع جريمة ..

غير أن الفم المسدود لم يمنع العينين أن تفضيا بما تشاءان .. أكثر من  
الفم .. بل أزرتهم الدموع .

وعندئذ دس في جيبه « غدارة » وسار على النيل . ذيل جلبابه تحت  
إبطه حتى لا يتعثر ورائحة عرقه تصل إلى أنفه من الجهد .

وكان الهدوء الخارجى يؤكد له بمنطق لا يعقله هو أن شيئا رديئا لم  
يحدث . فلم ينتبه إلى النيل الهادئ ولا إلى السعف الذى لا يهتز ولا إلى  
ناى يناغى على الشاطئ الثانى للنهر .



وسار يزفر ويتلفت ولكن الهدوء الخارجى أخذ يعيد نفس المنطق .  
لكنه لا يستطيع أن يتلعه .. إنه خائف . عليه أن يحمل الهم وحده لعدة  
ساعات وإلا تحولت القرية إلى ساحة قتال . وربما قبل أن تنقشع المعركة  
يتبين الطرفان أن القتلى أو الجرحى فيها كانوا قربانا لإله طائش .. إله وثنى  
لا يعرف الرحمة .

ثم هو بطبعه مشهور بأمرين .. إنه يضع « القرش » فى مكانه  
و « الطلقة » فى مكانها . لم يسرف ولم يتعد وإن كان قوى البناء شجاع  
القلب .

وقف يضرب الأرض برجله ويتلفت كدليل ضل الطريق . وحلق  
فوق رأسه غراب فنظر إليه وتبسم .. إنه لا يريد أن يرى ما يدعوا إلى  
التشاؤم . ثم سار بضع خطوات لم يذهب بعيداً . ووقف مدهوشا خافق  
القلب فقد رأى على الأرض أثرا للعبة يحبها ابنه كاد يشم فيها رائحته .  
وهو شخصيا قد علمه إياها . وهو شخصيا قد لعبها وهو صغير .

جنينة وحقل صغير . بساط من التراب خطط وسقى بالماء وزرع  
بسعف النخيل وغصون الشجر وعلى رأسه كومة مرتفعة صبت يد منها  
الماء بإناء فتكون المنظر .. منظر يكبر الطفل ويصغر الرجل .. ذكريات  
ماض ومستقبل ..

وتلفت .. ليس هنا أحد ، لكن .. كأنما أحس أن أنامل ابنه هى التى  
صنعت هذا الشئ ، وتذكر أنه يعبر من أرضهم ومن غير المحتمل أن يجىء  
ابنه حتى هنا ..

وتسمر فى مكانه . طافت برأسه ذكري عداوات وإحن يشغل

القرويون بها قلوبهم إلى مدى طويل . كأنما الليل الخالى من المشاغل مكلف بأن يحتضن هذه العداوات ويربها ويغذيها .

ونظر إلى الشمس ، إنها على وشك أن تغرب . وتموجت حقول القمح في حركة مثل حركة النهر وخشخشت من نسمة عابرة . وكسر عينه ونظر إلى الشمس . كان يرجوها بقلبه ألا تغيب فليس معنى غيابها والموقف كما هو إلا جريمة وهلاك .

ثم اتجه نحو النهر . كان مسترسلا في حركته هادئا مثل الحصير وعلى شاطئه الشرق يقوم الجبل الأشهب الذى ترمى عليه الأشعة ثم تحول بصره إلى الحقل والجنينة تلك التى زرعها طفل .. سعف نخيل وأعواد خضراء .. وماء وساقية . وموقع قدم لطفل فى سن ابنه مرسوم على الأرض المبلولة بماء الرى حول الحقل الصغير .

وتأوه .. وتحسس جيبه .. كانت الغدارة فى مكانها منه . ونظر إلى النهر .. كأنما ليسأله هل هناك جريمة . ولم يفتن إلى ذلك الهيكل القديم الموضوع هناك مقلوبا لركب شراعى ريثما يصلح .. أو لعله أهمل ..

ومن وراء هذا المركب القريب من ماء النهر رأى صبيا فى مثل سن ابنه .. ست سنوات .. قد شمر أذيال جلبابه وربطها حول خصره وبدت ساقاه السمران المعروقتان وقد ابتلتا بالماء وفى يده كوز من الصفيح ملاءه من النهر واتجه به ليصعد إلى الطريق ويتم اللعبة .. يسقى الجنينة والحقول . دق قلبه بعنف . فقد حسبه ابنه وليس به . لكن .. على كل حال فإن الموقف يستدعى عملا .

تلقت حوله كما يفعل البازى وهبط إلى مسطح الأرض القريب من



كسر عينه ونظر إلى الشمس  
كان يرجوها بقلبه ألا تغيب

الماء . كان الصبى يدور حول المركب ليأخذ طريقه إلى أعلى .. إلى حديقته وحقله والماء في يده وانتبه فجأة من أحلامه على خطوات رجل ينحدر إليه .

لم يأبه به . لكنه ما لبث أن رأى في عينيه شيئاً فخاف . بغريزة الخوف من الظلام التى تبكى الرضيع حملق فى الرجل وارتعد فسقط الكوز على قدميه وسال ماؤه على الرمل . ولم يكن فى قلب الرجل شيء إلا صورة ابنه هو .. ابنه المماثل له فى العمر والذى ملأ قلبه الخوف عليه من أهل هذا الطفل الذى يحمل الماء ليسقى جنة صغيرة خلقتها أحلامه .



لم يكن فى رأسه فى هذه الوهلة سوى الهمسات والوساوس والأحقاد . كان فى مكمن لا يخطر على بال . كان راقداً هو والطفل تحت المركب المقلوب على الشاطئ على مقربة من الماء .. وضع يده على فمه وسحبه ودخل به إلى هناك .. رهينة لحرب محتملة الوقوع . فإن هناك احتمالاً كبيراً أن يكون ابنه قد خطف بيد أهل هذا الصبى فابنه لم يعد منذ الصباح إلى الدار وبدأ النسوة يهمن بأن هذا كله جائز .

ولم يكن فى نيته أن يفعل هذا . كان قد انحدر إلى الصبى بعامل من الحنين لتقارب السن . انقلب فجأة إلى ضغينة حركتها الشكوك ومع أشعة آخر النهار رأى الصبى فى عينى ذلك الرجل شيئاً يخيفه .. بدت الصرخة على وجهه قبل أن تنبعث من فمه فدب الخوف إلى قلب الرجل الذى لم يكن يضم شياً . وشعر أن مصير ثلث هذه القرية معلق بصرخة هذا الولد . لن

يكون هناك مجال للتفاهم وسيدل حقد على مكان حقد آخر حتى لا يبقى في القلوب موضع للرحمة .

لذلك فإنه قد وضع يده على فمه وسحبه ودخل تحت المركب فقد شعر بقلبه أن هناك علاقة ما بين هذا اللقاء ومصير ابنه ..

كانت الفرجة التي دخلا منها واقعة ناحية الماء . ناشئة من أن جسم المركب قلب على أرض غير مستوية ترتفع قليلا ناحية النهر وتنخفض كثيرا ناحية الشاطئ .. وعندما احتواهما المكان كان طبيعيا أن يخاف الصبي وأخذ يردد بصوت متقطع كان الرجل يعرقه بكفه قائلا :

« ح اقول لابويا برعى .. ح اقول لابويا برعى » ..

عندئذ وضع يده على فمه برفق ليمنع ارتفاع الصوت تماما كما وضعها على فم زوجته حتى لا تقول كلمة يتشاءم منها .

وأحس وهو رابض مثل الوحوش أنه يقف على « حافة الجريمة » ولم تبق إلا شعرة واحدة ليسقط فيها . فهناك أصوات بدأت ترتفع على الطريق . أصوات رجال يتكلمون كلاما نصفه دمدمة . بعضه ذهب هباء لبعده المسافة وبعضه ذهب هباء لدغم الكلام . لكنه على كل حال عرف فيهم صوت أحد أقارب الصبي ..

كان الظلام قد نزل . وكان لا يرى شيئا إلا صفحة الماء تنعكس عليها النجوم . وفكره محلق في داره ويده على فم الصبي لا يريد شيئا إلا منعه من الصراخ حتى يتدبر الموقف .

وسمع خشخشة على ظهر المركب فارتجف .. لعل فأرا كبيرا يمر فوقه .. ورفسه الطفل برجله في بطنه فكبل رجله بيده الأخرى . إنه يريد أن

يتماسك لا يريد حتى الآن أن يتردى وعن له أن يسأل الطفل عن ابنه ..  
مجرد كلام .. كأنما الموقف أراد متنفسا . لو أنه يعلم أن السؤال ربما  
يؤدى إلى الندم لكنه يريد أن يفر من هذا العبء فهو سجين مع كائن ربما  
دفعه إلى الجريمة فى وحدة وظلام وحصار ومعه منديله وغدارته لكن قلبه  
لا يزال حتى الآن رافضا أن يفعل شيئا .

قرب أذنيه من فم الطفل وسأله :

— هل رأيت ابنى أحمد ؟

وكانت كفّه على فمه لكنه استطاع أن يسمع كلمة :

— لا .. لا ..

فتهد الأب . وعادت الأصوات تتناهى إليه من أعلى الطريق .  
وكأنهم لم يكتفوا بأن يمشوا كالديدان بل جلس ثلاثة منهم فوق  
صخرة يتكلمون . وكان صوت أحدهم غاضبا . ارتفع فى ظلمة الليل حتى  
وصل إليه تحت المركب .

— لا فائدة من البحث .. هو المسئول ..

— آه .. وحش .. آ .. كلهم .

ولم يعد الصوت يصل إليه واضحا . وأحس أن الطقس قد بدأ يتغير .  
بدأت النجوم تهتز على صفحة الماء . لم يعد النهر ساكنا .

فقد أخذ نسيم أخريات أبريل يتحرك كخريف دافئ . وهدأت  
أصوات الجالسين ثم سمعهم يدمدمون .. أصواتهم تبتعد بما يدل على  
الانصراف وعندئذ أدنى أذنه من فم الصبي وسأله :

— هل رأيت أحمد ؟

... —

— هل رأيته أو سمعت عنه خيرا ؟!

... —

رفع يده من على فمه فألقى أنفاسه منتظمة . هل نام ؟!  
نعم لقد نام . غير أنه لمس جبينه فألفاه دافعا . وقرب كفه من فم الصبي  
الراقد فأحس نفسه محمومًا . هل هو الخوف ؟! هل أكلت المفاجأة بقية  
حيويته فأضناه الجهد وخدره النسيم ..  
وأيقن الرجل أن هذا من عناية الله . أحس أنه ابتعد شيئًا ما عن ( حافة  
الجريمة ) فلو أن الصبي أصر على الصراخ لوقع شيء لا يخطر على البال .  
إنه يستطيع الآن أن يفكر بهدوء نوعي . هدوء المتعبين حين يستلقون على  
الأرض .

وفعل .. ولمس ظهره أرضا غير مستوية فأحس أنها تدلكه .. مواضع  
الآلم في جسمه كثيرة ومعظمها في .. القلب .. وسأل نفسه وقد لمس  
عضده الغدارة تحت ثيابه : « لماذا تنسى الضغائن ؟! » لكنه عاد فتذكر  
أنها يقام لها في القرية نصب تذكاري يقدمون له بين حين وحين أعز  
ما يملكون .

ولفترة ما شعر أنه هو وهذا الصبي في معزل عن الحوادث .. فالصبي  
قد خطفه النوم وهو قد خطفه خدر حماه من أزمة الموقف . وعاد فسأل  
نفسه : « من الذي سيخبرني الآن أن ابني بخير أو بشر ؟! وماذا سأصنع  
في هذا الصبي النائم ؟ هل أدفع به إلى الماء وأكون بذلك قد أخذت الثأر  
مقدما ؟ .. طيب .. لكن .. ماذا يكون العمل إذا ظهر أن ابني بخير ؟

( وتنهذ ) .. إننى أكون قد عملت جريمتين .. القتل بلا داع ثم إثارة الفتن من جديد بين عائلتى وعائلة هذا الصبى .. آه .. ماذا أعمل ؟ » .  
وتسمع بأذن مرهفة . أذن القروى الخائف أو المتربص التى تلتقط أدق الأصوات وخفق قلبه حين مرقت إليه فى السكون زغرودة .. منغمة ندية ذكرته بطزاجة القشدة . إنها من النصف الجنوبى للقرية ربما من امرأة بشرت بغلام ولدته بنتها العقيم .. ربما تمت خطبة .. هناك شئ جميل على كل حال . لم تنبث طلقات رصاص ولا صرخات .. وليل أبريل طرى النفس ... والوقت يمر ... وقال فى نفسه :

« يجب أن أعمل شيئا . يجب أن أعمل شيئا » .. وكان محقا فتأخره فى الخارج ربما أحدث مشكلة . ولأمر ما يغطى القرية هذا السكون . تسلل وترك الصبى نائما . تحسس جبينه بكفه فألقى عليه بواذر الحمى .. ومن الطرق المأمونة وصل إلى داره .. يريد أن يعرف ماذا هناك ولا يزال الصبى رهينة مقيدا بالنوم .. وقبل أن يستيقظ — إن جاز ذلك — سيعرف كل شئ ..

أحس فى هذه الليلة أنه يمشى مثل الأشباح التى يحكون عنها . ليس لأقدامه وقع . ممكن أن يقطع الكيلومتر فى خطوة واحدة . قوى غريبة ملأت جسمه وعقله وقلبه . أحس أنه منفصل عن الناس . وكل كلمات تناثرت فى الطريق أصبحت لا تعنيه .

لم يكن فى القرية شئ غير عادى . غير أنه دهش لعدم اهتمام العائلة الأخرى بغياب ابنها .. لذلك شعر أنه شبح .. غريب يمر فى قرية لا يعرفها .. أو أنه فى حلم .. هل كل هذا معقول ؟!



ووصل إلى داره . كان هدوء شديد يحيم عليها . هدوء الذين لا يريدون أن يعلم أحد عنهم شيئا . الذين يرغبون في مداراة زلة وقعت منهم ..

كانت امرأته واقفة بالبواب .. ورأى ابتسامتها ففهم أن ابنه عاد . لكنه هم بأن يصصرها . تلك التي بذرت في نفسها بذرة خطرة .. بذرة تنمو وتثمر في يوم واحد .. وربما ساعة . قالت بعد أن احتواهما الدهليز ..  
— عاد المشكوك .. كان يلعب في الغيط ..

وبصق الأب على الأرض ثم على الجدار الطيني ثم سأل :  
— يلعب ؟! لعبت نفسه على عود .. ليته لم يعد . كان يلعب مع من ؟!

فأطرقت الزوجة . وقفت كلماتها على شفتها . ثم قالت :

— مع سعد ابن ..

فرد محموما :

— ابنهم ؟! ابنهم ؟!

— ابنهم .. زرعوا جنينة وسقوها على شاطئ النيل و .. و .. و ..  
وجملهم المسعور هرب منهم في الحقول وخرجوا جميعا يبحثون عنه ..  
فرد مذهولا :

— جمل من ؟.

— جملهم ؟ .. جملهم ؟ كلهم خرجوا وراءه حتى لا يعرض أحدا .  
ولا يزالون يبحثون عنه .

فتداعى الرجل جالسا . ونظر إلى السقف . كان أسود من الدخان

لكنه خيل إليه أنه يرى السماء من خلاله . ومن خلال السماء كأنه رأى الله فأطرق حاملا رأسه بين كفيه ثم نهض كالملسوع . سألته امرأته :  
— إلى أين ؟ .  
فلم يرد .

وامتد به السير قليلا . ليس إلى النهر حيث الصبي تحت جسم المركب ولكن إلى بيت امرأة عجوز مشهورة بالطيبة والحيلة . طرق بابها ففتحت . وشرح لها خطورة الموقف . وأفهمها أن أهل الصبي مشغولون بالبحث عن الجمل وإنهم بكل تأكيد غير منتبهين لغياب الصبي فكل فرد منهم يظن أنه مع الآخر وإلا لتغير الموقف تماما ..  
وضعت المرأة طرحتها على رأسها واتجهت إلى النهر حيث ذهبت إلى الصبي وحملته وعادت به إلى داره زاعمة أنها كانت في العزبة القريبة فرأته راقدًا على الطريق على مقربة من جنيحة زرعها . وها هو ذا البرد لحقه ...  
« تبحثون عن حيوان وتنسون الإنسان !؟ » . وكان تأنيبها لهم في الحقيقة اعترافا برحمة الله ..



وفي اليوم التالي كان الصبي لا يزال محموما . كل ما يقوله قريبا من قصته لا يصدقه الأصحاء من أهله .

أما الأب فلم يذق النوم وعندما نام أحس كأنه تحت هيكل مركب قديم يجثم على أنفاسه . ويحلم أن يديه ملوثتان بدم . وأن ابنه غارق في النهر . وأن سقف الحظيرة سقط على المواشى . وأن امرأته تعاني سكرات الموت بعد

حادث ولادة .

وأن السماء تمطر غزيرا ورشح السقف يسقط على رأسه .  
واستيقظ على عرقه وقت الضحى محطم الجسم فبادرته امرأته مبتسمة  
وهي تقول :

— وجدوا الجمل وذبحوه .. وقد علق الجزار لحمه في الشجرة .. هناك  
.. ( وأشارت بكف مخضوبة بالحناء ) .  
فقال الأب .

— نشترى منه مائة رطل لنوزعها على الفقراء .  
فنظرت بعينين مستفهمتين لأنها لم تكن تعلم حتى الآن ماذا جرى .  
أما هو فقد كان يقول في نفسه :  
« الحمد لله . حيوان مسعور ذبحه الجزار وعلقه في شجرة . نجى أهل  
القرية من مجزرة .. متى يا رب ننسى العداوات ؟! » .





التذكرة الخضر

« لماذا يخفق قلبه هكذا كلما رأى القطار من بعيد يهل في أهبة وقوة تتحدى الأحباب والأبعاد ؟! » .

لقد ركب الباخرة وركب الطائرة لكنه لم يكن يوم ركبهما ذلك الغلام الريفي الذي أتم ثلاثة عشر عاما ، وفي يوم خريف ازدحمت فيه محطة الركاب بشكل غير مألوف لأن طائفة من عمال الزراعة كانوا مسافرين إلى الشمال ، وكانوا واقفين جنب أمتعتهم في قلق شديد أما هو فقد كان مسافرا لأول مرة في حياته . ذاهبا إلى الإسكندرية ليدخل إحدى مدارس المعلمين ، وليس له في الإسكندرية قريب ولا صديق . وأبوه فلاح رقيق لا يستطيع أن يترك أرضه ويقيم مع ابنه في المدينة حتى لمدة عشرة أيام .. حتى تم مراسم الالتحاق بالمدارس .. من فحص طبي وامتحان .

ولم تكن المشكلات تدرس عادة على مسمع منه ، والله يعلم سبب ذلك . وكل ما يستطيع أن يستنبطه اليوم هو أن أمه توارى عنه دموعها وهمومها التي عاشت فيها أكثر أيام شبابها ، وأنها كانت تصرخ في وجه أبيه إذا ما حاول كشف أوراق الحياة العائلية أمام هذا الابن بالذات دون أولادها جميعا .  
لماذا كانت تخاف عليه ١٩.

كان الاضطراب يهز عوده النحيف والأرق يقهر ليله إذا ما وقف مصادفة على إحدى مشكلات البيت وخصوصا الديون .. تلك التي يتحدث عنها بهلع حين يذكر المحكمة والمحضر والبيع والمزاد .. فكانت

هذه الأسماء الغريبة مثل عفاريت وجنيات تنضم إلى عالم المخاوف في دنياه الصغيرة . نعم .. ولذلك بات الأيوان قبيل سفره ثلاث ليال يدبران الأمر كيف يسافر هذا الصغير ؟ وكيف يقيم في مدينة الإسكندرية ؟!

ولم تكن هذه القضايا تفحص إلا قبيل النوم .. قبيل نومهما . بعد أن يأوى هو إلى فراشه الأرضى في حجرة مع أبويه وكان يعرف أنواع الأحاديث وأهميتها من طريقة نداء الأم .. عندما تهتف باسم أبيه وكأنها على وشك أن تسقط في هاوية . عندئذ يطير النوم من عينيه ويتحتم عليه أن يمثل سكون النوم ، وتحت سلطان هذه العملية العسيرة يظل يستمع — في خوف شديد — لوصف العالم الذى لم يروه هم . وعلم بمرور الليالى التى سبقت سفره أنه سيكون في مرافقة الحاج إسماعيل . وهو رجل من القرية له ابن موظف هناك . وأنه سينزل في ضيافتهم حتى تنتهى مراسم الالتحاق بالمدرسة . والخطوة التالية تدبر فيما بعد .



— « آه .. عال .. الحمد لله رب العالمين » !! —

وخرجت كل هذه العبارات مع تنهدات مرتاحة من فم الأم وصدرها . ورفع الأب عقيرته يطلب ( لقمة ) فقد طال الحديث والسهر أما الغلام .. المسافر .. فقد تظاهر بالنوم . لكن منظر قطار السكة الحديد . ورفيق السفر . وفراق الأم والأب والإخوة الصغار . والعالم الذى لم يصفه له أحد .. كل أولئك كان أشبه بكف تقبض على قلبه الغض أحياناً وترنخى وأحياناً تشد . وآيات من القرآن تتردد من فم الأب وهو يأكل . أما الأم فقد كانت لاأذنة بالصمت .. وفتح الغلام عينيه في حذر وألقى نظرة على المشهد فرأى

القلق راكدا على وجه أمه ومتحركا على وجه أبيه وهو يتناول طعامه . ثم أغمض عينيه ، واستحضر صورة الرجل الذى سيكون فى حمايته فرآه طويلا عريض الصدر واسع الكرش يتكلم بأناقة ويؤكد كلامه بالحركة والأيمان . وسمع أمه تقول لأبيه :

— لا أدرى لماذا أنا خائفة .. إن هذا الرجل حلاف .. وأنا أخاف

منه .

لكن .. عندما لا يكون هناك إلا طريق واحد يؤدي إلى الغاية فإننا عادة نتجاهل أخطاره .

فأقسم الأب أن كل شيء سيمشى على ما يرام ، وأنه لو كانت هناك مصاعب فمن الخير أن يراها ابنه .. فكل هذا سيجعل منه رجلا .. واصطدم الغلام بكلمة ( رجل ) وتصور نفسه وهو فى طول أبيه وعلى شفته شارب مثله يميل إلى الصفرة مسترخ يدل على الطيبة . وشهقت الأم ببكائها فقامت وأطفأت النور . وعم الظلام وساد صمت متوتر تناهى فيه إلى سمعه نباح كلاب وقرقرة دجاج ثم صفير قطار يمر بين المزارع .



وكان القلق يسود المحطة الريفية الصغيرة يومئذ بشكل مريع ، والغلام واقف بجوار الحاج يحاول بين حين وحين أن يمسك كم جلبابه ليشعر نفسه بالأمان ، لكنه يعود ويتذكر أنه ليس أباه . ولم يوجه إليه الرجل كلمة واحدة طوال الانتظار المرعب الذى كان الفلاحون خلاله يحذرون بعضهم بعضا من أن يتحرك القطار قبل أن يركبوا :

— خلى بالك يا على . تناولنى القفة من الشباك . والولد من الشباك .

— من الشباك ؟



— بالطول .. بالطول ..

— آه .. القطر بان .. شايف الدخان ؟!

وساد الهرج والمرج وتذكر كل واحد نفسه كأنه طوفان بلا ماء .  
وعندئذ أمسك الغلام بمجلباب رفيقه ، فإذا به يدفع يده في عنف ويقول  
له :

— اصعد ورائى . إننى سأمسك ابنتى .. هل تريد أن أحملك .. احمل  
( سبتك ) واصعد به .

وتم كل شيء فيما يشبه الحلم . فمن المحال أن يتبين هذه التفاصيل .  
وأهمته غريزة الدفاع عن النفس أن يدفع الركاب بثقل السبت . وبين  
كلمات ( حاسب . اطلع . انزل . اوعى . هات . خذ ) في عصبية  
وسرعة وأنانية دخل من الباب الضيق البنى لعربة السكة الحديد ، ووجد  
نفسه على كرسي من الخشب بجوار شباك . وجو العربة جو سوق  
متحرك كالذى تركه في القرية . ولم يلبث أن اكتشف شيئا خطيرا هو أن  
المسافر معه موجود في العربة . ونظر من النافذة فرأى الشمس شديدة  
التوهج على الحقول ، وخيل إليه أنه سيرى والده واقفا على رأس حقل  
وأعمدة التليفون تجرى بسرعة لم يعرفها .. غريبة على من سار على تراب  
القرية . ولا أحد يكلمه . فشعر بغربة لا نظير لها . فبكى .. وعلى الرغم  
من كل هذه المصاعب التى أحس أنها فوق احتماله ظل جامدا في مكانه ..  
ثبته الخوف . وبعد زمن لا يدرىه رأى رفيقه داخلا يسد الباب في اتجاهه  
إليه قادما من العربة الأخرى وعلى وجهه طمأنينة لا تصدق . ثم انحشر  
إلى جواره . وأخذ الغلام يتطلع إليه كأنما يذكره بشيء يسمى  
( الكلام ) . أحس أنه في حاجة إلى أن يقول أو يسمع ، وكان هذا

الضجيج من حوله نهر قريب لا حيلة للوصول إلى مائه العذب .  
وتغافل الرجل عن نظراته المتوددة ونسيه في جلسته المنطوية ومد يده  
أسفل الكرسي فأخرج كوزا من الذرة يأكل منه بشهية ، وانصرف  
عنه ، ثم استسلم بعد ذلك للنوم .



كان على محطة الإسكندرية أناس كثيرون عرف أنهم من أهل القرية  
عندما صافحوا الحاج إسماعيل وسألوه عن اسم هذا الغلام . كانوا بانتظار  
المثونة مع ( الأبونية ) أو بعض القادمين إلى الإسكندرية .. وحمل الغلام  
قطعة كبيرة من متاع الحاج ، أما هو فحمل القطعة الصغرى التى تخص  
الغلام . وكادت كتفه تنبتر لكنه مع ذلك كان يتأمل ويتبع ببقية انتباهه  
وأعصابه الدليل الذى يسير أمامه حتى الأرض ذات البلاط المربع والسماء  
ذات السقف الزجاجى ويتبع ببقية انتباهه وأعصابه الدليل الذى يسير أمامه  
حتى لا يضل الطريق .

وجاءت اللحظة الحاسمة عندما وقفوا خارج بناء المحطة . كان ابنه  
بانتظاره هناك فى حلة سوداء أنيقة ، وفى رباط عنقه دبوس وعلى شنبه علامة  
تكبر . وصافح أباه ونظر إلى الغلام ولم يصفحه . ثم انتحى بأبيه ناحية ودار  
بينهما حديث فهم منه الغلام أنه ليس فى صالحه ، ثم ساد صمت ووقف  
الحاج يقلب كفيه ويطوح كفيه . ورائحة الإسكندرية ونداوة البحر تملأ  
أنف الغلام والدموع فى عينيه . وأقبلت عربة حملت المتاع والأفندى  
والأخت وتركت الغلام و ( السبت ) والحاج واقفين على الأرض ..  
وأحس الغلام أن مصيره معلق فى خيط رفيع ولم يستطع أن يخمن ماذا



خيل إليه أنه سري والده  
واقفا على رأس حقل ..

سيحدث . وكان السائق على أهبة أن يأمر الخيل بالسير ونظرة تخيير بالغة الحزم تنذر الأب بأن العربى ستتحرك . فتركها الرجل وجرى فى الميدان حيث عاد بطالب عرفه الغلام ووقفا يتها مسان والعربى فى مكانها والسائق مائل العنق والخيل تبدل رجلا برجل والغلام يحس إحساس الرقيق الذى يباع . وأخيرا .. سلم الحاج على الطالب وصعد إلى العربى . فأيقن الغلام أن الصفقة قد تمت !! وسالت دمعة من عينيه كانت لكلمة عذبة سمعها من الطالب .

— أنت مثل أخى .. ستبقى معى أنا حتى تم امتحانك .

فرد عليه فى حياء :

— متشكر .. لكن أبى سلمنى له .

فقال مداورا :

— معلش .. آ .. آ .. إن فى بيوتهم ضيوفا كثيرين . أما نحن .. فبيتنا

واسع .

وأخذ الترام يشق به شوارع الإسكندرية للمرة الأولى وهو صامت . لم يحاول أن يكلم الطالب ، لأنه لا يدرى ماذا يقال ، ولم يكن الإحراج باديا على وجهه بل .. كانت هناك دلائل رضا معقول .. غير أنه رأى أنه من الضرورى أن يسأل :

— هل أعطاك الحاج .. نقودى ؟

— نقودك ؟! لا .

— هل تعرف عنوانه ؟!

— عنوانه ؟! لا .. حتى لم يقل لى عليه . ( صمت ) ولكن ..

لا تخف .. إنه يعرف عنوانى .. وربما مر علينا فى سكننا .

وماذا كان سكنهم ؟ شقة تموج بالطلبة كل ثلاثة ينامون في حجرة .  
على حشايا لا تفرش إلا في الليل . وجلس يتغذى في وسطهم تتسلل يده  
الصغيرة من بين أيديهم الكبيرة تسلل من لا حق له .  
وجاء الليل . فبدأ يفكر في مشكلة النوم . وأخذ يحسب الزمن وهو  
ينظر إلى مدخنة أحد المصانع في حي ( القبارى ) . فأحس أنه ولد منذ  
خمسین عاما ، منها عشرون في الإسكندرية . وأخذ الحنين بخناقه فلجأ  
إلى الخارج .. خاف أن ينزل إلى الحارة فجلس على السلم وأطل إلى القاع  
حيث الظلام والرطوبة وأخذ يبكي في صمت وكانت أصوات الطلبة  
تتناهى إليه من الداخل وهم يتصايحون أو يضحكون . ومل من  
الجلوس ، فدخل فإذا بهم يشربون شايا ونظر بعضهم إلى بعض .. وفي  
يد كل واحد منهم كوب .. ولكن الشاب الذى أواه قدم إليه بقية شرايه .  
فرفض وبكى وكان بكاءؤه امتدادا لحالته النفسية منذ الصباح . لكن ذلك  
أثار ضحك الطلبة . ربما قد ظنوا أنه بكى لإهالمهم إياه . وانزوى في ركن  
يحاول أن يجد شيئا يلهيه عن النظر إليهم حتى جاء وقت النوم . فوجد  
مكانه على حشية الطالب بينه وبين الحائط لكنه لم ينام . فقد عرف طعم  
الأمان عندما فقدده وشعر بإحساس مبهم معهم ينفى النوم عن كل عين .  
إحساس الراقد في العراء أو الخفير الذى يحرس كنزا !!



وفي الصباح خرجوا وتركوه وحيدا . فأكل وشرب وحملق في مرآة  
ضغيرة فرأى عينيه في لون الدم ، وذكر أن غدا موعد « الكشف الطبى »  
وأن عليه إذن أن يصبون عينيه من البكاء . لكن المأزق الذى وضعته فيه  
الظروف والحنين والوحدة وحادثة السن كانت جميعا ضده .. وعند العصر

كان غير قادر على أن يفتح عينيه .. فتذكر الرمد الذى أصابه من سنتين وكيف أنه عاوده فى وقت غير مناسب .. وفى صباح اليوم الأول والثانى « للكشف الطبى » كان من العسير أن يفتح جفنيه . وكان مستلقيا على حشية على الأرض فى حالة من الاستسلام طغت على شعوره بالألم والحنين والمسئولية . وخلال هذه الأيام جميعا لم ير الحاج إسماعيل ولم يسأل عنه حتى أبلغه الشاب الذى استضافه أن ميعاد « الكشف الطبى » قد فات وأن الحاج عاد إلى القرية مع جثمان قريب له توفى هنا .. فى الإسكندرية .

وضحك الطالب . كأنه تذكر الجثمان الحى الذى نسيه الحاج وسافر .. والمصاعب التى سببها له فعزل سير حياته ..

وأقبل المساء . واستغرق فى النوم .. وأحس أنه يحلم .. كان الصداع يوقظه والنوم يغلبه . وانتقل الطلبة بعيدا عنه وكانت أصواتهم تتناهى إليه كلما أيقظه الصداع . وحلم أن بينهم صوتا يشبه صوت أبيه .. وعاد فاستغرق ثم أحس كأن نفسا يقترب من خده .. نفسا حارا جدا . كان فى حالة لا يقدر فيها على تمييز ما يدور حوله فقد كان مرهقا ونائما .. لكن النفس لامس خده ثم وقعت ذقن خشنة على خده فنهض جالسا .. وحاول جاهدا فتح عينيه . لكن الرجل أعفاه من العذاب إذ هتف به :

— ابنى !! سلامتك ..

ونسى كل شيء إلا سلامته .. واحتضنه كمن أنقذ غريقا وعرف الابن من لهجة أبيه المرتعشة أنه ييكى .

كان هذا العام الذى ضاع من عمره عزيزا عليه . غير أنه منحه قدرة على تحمل المصاعب . وإن كان قلبه حتى اليوم لا يزال يخفق كلما رأى قطارا يمر . أو تلميذا صغير السن يطل من نافذة القطار وفى عينيه البريشتين نظرة وداع .







وجہاً لوجہ

كانت تحاول جاهدة أن تتفاهم مع هذا الذى غشها . إنها تعرفه منذ سكنت فى هذا الحى . بائع اللبن .. هذا الطيب .. الذى تفوح من دكانه روائح تشتهىها النفس . وفى واجهة محله الزجاجية أطباق القشدة المسكرة والمهلبية باستمرار . وكل الناس يثقون فيه ، لكن .. لماذا غشها ؟! هى بالذات . والمؤلم فى الموقف أن أحدا لن يصدقها .. وهى الآن تعذب نفسها إلى درجة لا تحتمل . فهمها للموقف وحدها دون الناس جميعا وهو أنه تستر بثقة الناس فيه وغشها هذا الغش الفادح .

شعرت أنها جائعة متعبة ساعة استيقظت من النوم عظامها تؤلمها حتى النخاع : « يا الهى .. لم أكن كذلك ليلة أمس فقد عدت من عملى آخر الليل وأنا فى غاية من الصحة والبهجة كذلك . فقد شهدت فيلما أنا وحبيبى .. أضحكنا حتى دمعت عيوننا . لكن .. ما هذا العناء ؟! » . واتجهت إلى المطبخ المظلم — ولو أن الوقت صباح — وأشعلت النور ووابور الجاز . ووضعت اللبن على النار حتى غلى ثم أخذته وجلست وحيدة فى الشقة الصغيرة المعزولة وجلست تشرب . وعند الجرعة الأولى أحست كأن التعب غير كل طعم فى فمها . نعم لكنها عاودت الأمر . فما لبثت أن اكتشفت أن الرجل لم يبع لها لبنا بل نوعا من الجير مذابا فى الماء لسع فمها وأحرق لسانها فأسرعت تهبط السلم إليه وغضبها يغلى . على جسمها ( روب ) والحر شديد وهى تشعر بالبرودة والعرق يتصبب من جبينها وأطرافها ترتعش . والمرثيات أمامها مهزوزة وهى فى طريقها للبان .

وعندما وصلت إلى باب دكانه ألقت أمامه عددا من الزبائن وهو واقف في جلياب أبيض تبدو على وجهه طمأنينة من لم يعرف الإثم ، فزاد ذلك من حدة غضبها ، ووقفت تصرخ بأعلى صوتها وريقها جاف والعرق على جبينها بارد :

— أنت غشاش .. ليس هذا لبنا !!

ونظر إليها الناس في ذهول . إن أحدا لا يصدق هذه التهمة . ولوى بعض الواقفين شفته وربت امرأة على كتفها وهي تقول لها :

— التعب ظاهر عليك !!

فصرخت الفتاة :

— لا . إنه باع لي بدل اللبن جيرا . انظروا . إن فمى ملتهب .. شفتى السفلى قد تورمت . آه .. والعليا بدأت كذلك .. هل خدعكم وجهه الطيب .. إن .. آه .

وتهاكت على كرسي بلا مسند أمام الدكان ، وقد بلغ بها الظمأ حد من ضل في الصحراء . وأسندت رأسها إلى الحائط وأخذت تبكى وكانت بين الوهلة والوهلة ترى منظر البائع من بين أهدابها وهو يرسل إليها نظرة شماتة : شماتة من غشها وحدها دون الناس فكسب الناس في صفه . وبلغ بها الغيظ حدا دفعها إلى الانتقام فتحاملت على نفسها وهجمت عليه تريد أن تشفى غليلها وتضربه بشيء ما . وقع بصرها على وعاء نحاسي كبير فأمسكت به فإذا بها تصرخ . كان نازلا من على النار لتوه وأفرغ منه اللبن فأحرق أصابعها . وندت من البائع ضحكة صغيرة نصفها شامت ونصفها مثير وضحك منها الناس : « على الباغي تدور الدوائر » وزاد من عذابها أن أحدا لا يصدق ما بها . لا ألما النفسى ( حافة الجريمة )

ولا أُلها الجسمى . فخرجت تتعثر فى الروب وصعدت السلم تلهث .  
ولما دلفت إلى الصالة وجدت كوب اللبن لا يزال فى مكانه فضربته بكفها  
فأراقته على الأرض ثم أطرقت على المائدة .. شعرت أن رأسها ملئ  
بالرصاص .. وأن « هرقل » نفسه لا يقوى على حمله بهذه الصورة .  
لكنها أحست بالجوع .. جوع وألم فى آن واحد .. إن معدتها تعبر عن  
وجهى الحياة فهى تحس بالشبهة وديب المغص . وعادت إليها لقطة من  
الفيلم المضحك الذى شاهده مع حبيبها .. « زوجان يتعاركان وهما  
يأكلان .. فكانت المرأة تأكل ودموعها على خدها . وقال لها حبيبها  
ساعتئذ :

— إنها تركت أسنانها تؤدى وظيفتها كما تركت عينها تؤدى  
وظيفتها » .

وهكذا هى الآن . وتأوهت . ورفعت رأسها ومدت يدها إلى  
الخبز . وقطعت منه قطعة . أخذت تلوكلها فى هدوء كمن يفتش عن  
فكرة . عيناها شاردتان والصداع يدق . لكنها سرعان ما اكتشفت شيئا  
أثارها .. إن الخبز مغشوش .. إنه ليس دقيق ذرة ولا قمح ولا أرز ..  
وبصرف النظر عن الدقيق فإن أسنانها كلها أخذت تنبح .. لقد مضغت  
رملا . وطعم التراب يملأ فمها .

ووقفت تفكر . لم تستطع أن تفصل بين الحادثتين .. حادثة اللبن  
وحادثة الخبز . لأن الطاقة الإنسانية لا تستقبل الحادثة الثانية بنفس اكتماها  
الأول ، وشعرت كأنها مضطهدة ، أو على الأقل غير موضع لاحترامها  
أو كأنها ليست أهلا لأن تنال الحق العادى الذى يناله كل مواطن .  
واستحضرت صورة بائع الخبز ، ذلك الرجل الذى يكتسى ملابس

الريف وملاحه في المدينة . الذى لم يغير لهجته ولا فطرته ولا تقاليده .  
ذو الوشم على المعصم والصدغين . والمستقيم مثل شعاع الشمس على  
الحقول .. يغشها هى ؟!

وكشراع ملأه الهواء تحركت نازلة فالرجل على مقربة من الباب .  
مشت تتعثر . أطرافها باردة وريقها جاف ورأسها في ثقل كرة الرصاص .  
حتى إذا ما وصلت إلى دكانه ألفتة واقفا خلف « البنك » يبيع في هدوء  
فطرى سليم . لم تزوده الطبيعة بإحدى علامات المراوغة والناس أمام  
الدكان يأخذون ويعطون لكنها وقفت وصرخت فيه :

— أنت غشاش .. أنت غشاش .. كيف تبيع لى رملا بدل الخبز .. إن  
أسنانى .. آه ..

ووضعت يدها على فمها كأنها تحجز بين نفسها وبين الألم . ونظر إليها  
الناس في ذهول . إن أحدا لا يصدق هذه التهمة . ولوى بعض الواقفين  
شفته « وربت امرأة على كتفها وهى تقول لها :

— التعب ظاهر عليك .

فصرخت الفتاة :

— لا . إنه باع لى رملا .. انظروا .. إن أضراسى تكاد تسقط ولثتى  
ملتبة . وشفتى السفلى قد تورمت .. اللبان وبائع الخبز .. معا .. آه ..  
آى ..

وتهاكت على كرسى بلا مسند أمام الدكان وقد بلغ بها الظمأ حد من  
ضل في الصحراء . وأسندت رأسها إلى الحائط وأخذت تبكى وكانت بين  
الوهلة والوهلة ترى ذلك الرجل الريفى الطيب ذا الوشم على المعصم  
والصدغين ينظر إليها من بين أهدابه نظرة شماتة . شماتة من غشها

وحدها دون الناس فكسب الناس في صفه . وبلغ بها الغيظ حدا دفعها إلى الانتقام فتحاملت على نفسها وهجمت عليه تريد أن تشفى غليلها وتضربه بشيء ما . وقع بصرها على السكين الذى يقطع به الخبز لمن يريد نصف رغيف فأمسكت به فإذا بها تصرخ . فقد قبضت على نصله بدلا من أن تقبض على يده فغاص في كفها . وندت من البائع ضحكة صغيرة نصفها شامت ونصفها مثير وضحك منها الناس : « على الباغي تدور الدوائر » وزاد من عذابها أن أحدا لا يصدق ما بها . لا ألما النفسى ولا ألما الجسمى . فخرجت تتعثر في الروب بكف محروقة من النحاس مجروحة من السكين . وصعدت سلم بيتها تلهث . ولما دلفت إلى الصالة وجدت الرغيف لا يزال في مكانه على المائدة فأمسكته وفتته . مزقته كأنه جلاباب ذلك البائع ورمت به إلى الأرض فإذا به يتناثر في اللبن المراق .. وبعد قليل سمعت مواء قطة عبرت إليها من شبك الحمام عن طريق المسقط وتسملت بخفة خطواتها الخملية ونظراتها الكهرمانية ثم أخذت تأكل الخبز باللبن . كانت مسندة رأسها إلى المائدة وصوت لعقات القطة الرتيب المتلذذ يصل إلى أذنها كأنه صوت شماتة . فأخذت تتساءل : « وهل تأكل القطة الجير » .

أخذت الحيرة تدور بها .. كفراشة مرهقة أمام زجاج مقفل . لكنها .. ما لبثت أن أحست بالجوع .. جوع وألم في آن واحد . معدتها تعبر عن وجهى الحياة فهي تحس بالشهية وديبب المغص . وعادت إليها اللقطة السابقة من الفيلم الذى شهدته هى وحييها ليلة أمس .. ثم أحست كأن يده تدب إلى فخذها في الظلام ..

بادرتها رائحة لذيدة . وصلت إليها .. صافحت أنفها ثم غابت . كبقية عطر في منديل مفسول .

ثم ما لبثت أن انغمست في آلامها .. إن معدتها تنقلص .. كل شيء يؤذنها بالخطر . وهى وحيدة فى الشقة . وكان عليها أن تبلغ رئيسها فى المستشفى الحكومى الذى تعمل حكيمة فيه .. عليها أن تبلغها أنها مريضة . هناك أشياء لا تقبل التأجيل . لكن .. لم يعد فى استطاعتها أن تنزل . حتى لتتصل بالتليفون ..

وتذكرت علبة الدواء الذى تأخذه عادة عندما تهاجمها هذه النوبات فقامت إليها .. كانت جديدة . رفعت ورقها الشفاف ثم حركت الغطاء فانفتح فاذا بداخل العلبة شيء غريب . أقراص بدل الحبوب . وهى لصلتها بالطب لا يمكن أن يغيب عنها هذا . وفاح من العلبة رائحة نفاذة .. رائحة يعرفها الطفل .. إنها رائحة نعناع .. ولكنها لم تصدق نفسها فقطعت وذقت فإذا بالوهم حقيقة لا تقبل الجدل ..

وعندئذ أحست بقواها تحور : « حتى الدواء !! هذا مريع » كم تود أن تنزل إلى ذلك الصيدلى لتفضحه على قارعة الطريق ؟ لكنها عاجزة تماما عن جر ساقيا . كان أولى من ذلك أن تعتذر للمستشفى عن الحضور .. رأسها من الرصاص .. وعرقها بارد ..

غير أن الغضب عصف بها فمنحها قوة عصبية . فهبطت السلم وهى بنفس الملابس . الروب يلف على ساقيا والحر شديد والمرثيات أمامها مهزوزة وهى فى طريقها إلى الصيدلى .

وعندما وصلت إلى هناك وجدته واقفا أمام أحد الدواليب فى معطف أبيض مثل ورقة السوسن . على وجهه جد العلماء واستقامة من يأتمنه الناس على حياتهم . وناس يأخذون ويعطون . لكنها دلفت إليه وصرخت فيه :  
— أنت غشاش .. أنت غشاش .. تفرغ العلبة من الدواء وتضع فيها أقراصا من النعناع ؟

ونظر إليها الناس في ذهول . إن أحدا لا يصدق هذه التهمة . ولوى بعض  
الواقفين شفتيه وربت امرأة على كتفها وهى تقول لها :  
— التعب ظاهر عليك !!  
فصرخت الفتاة :

— لا . إنه باع لى نعناعا بدل الدواء الغالى .. الغالى الغالى .. آه .. شفتى  
ملتبهية .. ويدي محروقة ومجروحة .. وأسنانى تؤلمنى هل خدعكم وجهه  
الطيب .. آه .. أى ..

وتهاكت على كرسى بلا مسند فى الصيدلية وأسندت رأسها إلى دولاب .  
وبين الوهلة والوهلة كانت ترى منظر الصيدلى وهو يرسل إليها بنظرة شماتة .  
شماتة من غشها وحدها دون الناس فكسب الناس فى صفة .  
وبلغ بها الغيظ حدا دفعها إلى الانتقام فتحاملت على نفسها ودلفت إلى  
الداخل .. حيث وجدت زجاجة مليئة بحامض .. كانت تريد أن تقذفه بها ..  
تريد أن تقتله ..

لكن الناس تجمهروا وأمسكوا بيديها ... وقادوها إلى الخارج حيث  
أجلسوها على كرسى ، وقدموا لها كوبا من الماء المثلج .



أحست أن ريقها ابتل هذه المرة . كأنما نقعت هذه الشربة كل عطشها ...  
النار التى فى صدرها بدأت تبرد . وكانت مسبلة أجفانها فسمعت صوتا نسويا  
عذبا هو صوت المرأة التى سقتها تقول لها :

— هنيئا !!

فتحت عينها فإذا بها تعرفها .. إنها زميلتها المريضة معها فى مستشفى .  
الحميات حيث يعملان معا . لم تكن فى الصيدلية حيث خيل إليها أن هذه





لو عرف قلبي طريق الحب  
ما فعلت كل هذا .. دعيني أنام

الحوادث تدور . بل كانت راقدة في سرير المرض محمولة .  
وابتسمت لزميلتها وردت بصوت واهن :  
— هناك الله !! مالى يا درية .. آه .. أنا نسيت نسيت أننى هنا . فى  
المستشفى الذى أعمل فيه حكيمة . آه .. ياله من عذاب .. الغش .. الغش .  
ضحكت زميلتها :

— أقسم لك بالله أنى ما غششتك . لقد أعطيتك كل الأدوية التى كتبها  
لك الأطباء . ولذلك تماثلت سريعا للشفاء . لم أنقص ولم أبدل وليس هذا من  
طبعى كما تعرفين .. تعرفين أننى أخاف الله .. وحتى على الأقل أحترم ضعف  
الإنسان ..

وعادت تضحك . شعرت المريضة أنها كانت مولودة ، ولم تسمع  
ضحكة على الأرض . هذه أول مرة . نظرت إلى زميلتها وعادت تهمس :  
— الغش .. عرفته .. قابلته وجها لوجه . فى الخبز واللبن والدواء . وذقت  
بسببه العذاب . غشونى وحذى . عرفت معنى ما فعلت .. معنى سلب  
الدواء من المريض وأنا فى هذا الفراش يا صديقتى .. تبت !!  
ردت زميلتها مداعبة :

— تبت عن الحب ؟  
همست وكفها على رأسها فى موضع الصداع :  
— لا . لو عرف قلبى طريق الحب ما فعلت كل هذا .. آه .. دعينى أنام !!

يوم الحصاد

يوم أن رأى جماعة من الصبيان يرمون هذه النخلة بالطوب ليسقطوا من عليها البلح .

ويوم أن جرى وراءهم مطاردا لهم صراخهم يتقدمهم وغبار الطريق يتبعهم ، وفي رأس أحدهم جرح صغير .

ويوم أن صعدوا للمرة الأولى في حياته فبدت له الأرض أما عزيزة بعيدة مع أنه لم يرتفع عنها أكثر من خمسة أمتار . وتصور ساعتئذ أن قوة خفية لا تقاوم تشده إلى أسفل بذراعين لا تعرفان التردد فسارع بالنزول قبل أن يسقط من فوق النخلة .

ويوم صعدوا كلها بمهارة وأخذ يتأمل العراجين عن قرب .. بعين هؤلاء الصبية على الأرض . هؤلاء الذين يخلقون بأرواحهم حول الطيور ويخاطبون العصافير والغربان مناشدين أن تسقط لهم من ثمرها شيئا .. وفي المرة الأولى هذه لم تشغله الثمار كثيرا وإنما شغله منظر الأرض . حين بحث عن موقع دارهم بين الدور .. هذه التي بدت سمراء قميئة يغطيها الحطب ، والتي يقع عليها أعلى أبراج حمام في القرية .

وخيل إليه في المرة الأولى أنه إنسان أعلى من الإنسان . أحس بنفحات متتابعة كترادف الموج فيها الخيلاء والروحانية والقوة . وبدت له سرعة الناس وأحجامهم أقل من المألوف ثم ما لبث أن شعر بقشعريرة تغمر بدنه .. حين تصور أن الحزام الذى يشده إلى جذع النخلة قد انقطع به فهوى من حالق ...

ويوم صعدوا ورأى الدخان يتصاعد من معظم الدور يوم السوق يوم تحمل الكوانين قدور اللحم بالتوابل وتنعقد على السطوح البنية غلالات من دخان الطبخ ويعود الفلاحون من الحقول مبكرين نوعا ما فلتقاها عند مدخل

كل دار روائح العشاء الساخن .

لكن هذه النخلة أصبحت مصدر متاعب له . فهي ذات نوع من البلح نادر الوجود في القرية وهي وحيدة وبجنبها نخلة وليدة لم يكن وقت إثمارها بعد . وقد تربص بها جماعة من الصبيان . ينهضون إليها مبكرين ليسقطوا بلحها بالحجارة وقد يزورونها وقت الظهيرة متخذين من بعدها عن القرية نوعا ما واستقلالها بين الحقول فرصة مواتية لإسقاط ما يريدون .

وهو لذلك لا ينسى المطاردات المتعددة لهم ولا يوم أن جرح رأس جابر ابن الحداد حين رماه بحجر صغير ثم اشتبك معه الحداد في عراك وتجمع حولهم الناس يلومون أو يهدقون أو يصلحون .

وكانت هذه الحادثة الأخيرة عصر هذا اليوم فعاد إلى داره بنفس قد امتلأت غيظا . ولما علمت زوجته بالخبر أخذت تلومه ثم ذكرته بما كان يصنع وهو صغير وحكت له عما كانت تعانيه حينما ترى عناقيد البلح على النخيل فتحس أنها في ارتفاعها لا بد أن تكون شيئا مختلف المذاق، وكم نازعتها نفسها وغلبتها فرجت النخيل بالحجارة .

لكنه على الرغم من كل هذا نام وهو مصمم على عمل . على أن يقطع العراجين ويعلقها في سقف الدار وإن لم تكن قد بلغت غايتها من التضج فخير له وهذه حالها من أن يدعها لأيدى الصبيان والحجارة .

وبات طوال هذه الليلة يحلم أحلاما مختلفة . أحلام رجل تأبى نفسه أن تتنازل عن بلحة لطفل حتى ولو كان بلغ هذا الطفل من حداثة السن وقوة التطلع حد أن يتوسل إلى الغراب أن يسقط له بلحة كما يفعل كل أطفال الريف .

بات يحلم أن أحدهم صعد إلى فوق فلسعت وجهه ( الضباير ) فنزل يصرخ ورآه هو فسخر منه . ومرة يحلم أن الحجر ارتد إلى رأس طفل رماه

فسال دمه وسخر هو منه . ومرة يحلم أنه يصعد النخلة ليجز عراجينها فقوجئ بأنها تطول مترا كلما صعد على جذعها مترا حتى إذا ما نظر من فوقها إلى الأرض رأى ارتفاعا شاهقا والناس في حجم الدجاج والبيوت في حجم الصناديق والترع مثل شريط من الورق المفضض ففرع من نومه خائفا ثم عاد فاستأنف النوم ..

لكنه على كل حال صمم على أن يجز العراجين بما عليها من بلع وها هو في الطريق إليها ظهر اليوم في يده سلة فيها أدوات الحصاد ويتلفت حوله في فضول فلا يكاد يرى أحدا .

واليوم شديد الحر من أخريات أغسطس وأعواد الذرة الصفية حولت الحقول إلى غابات شديدة الخضرة عميقة السكون وتراب الأرض سخنته الشمس ، وهذا الوقت تبشره بحصاد هادئ .

وعندما انتهى إلى يمينه امتداد حقول الذرة وبدا الطريق أكثر استنارة كان إلى يمينه حقول زرعت قطننا وإلى يساره على الطريق مجرى ماء تكاثرت على شاطئيه أعواد الغاب . فأحس بحاجة إلى الغناء .. إلى أن يسمع صوت نفسه . ثم ما لبث حقله أن لاح له . في مدخله تلك النخلة الثقيلة الحمل ومن أصل جذعها نبتت بنت لها ، ويكون الأصل مع الفرع زاوية حادة اتخذ الصبيان منها ملعبا ظليلا عدة مرات .

لكنه اليوم لا يرى تحت النخلة أحدا . وقف ورفع رأسه إلى أعلى . كان السعف ساكنا وحقول القطن من حوله لم يبدأ في حصادها بعد .. ورأى الارتفاع الشاهق والعراجين المرصوفة والسماء الصافية . ثم ما لبث بصره أن نزل إلى الأرض . خلع جلبابه وبقي بالملابس الضيقة التحتانية وشد حبل الصعود إلى وسطه ثم لفه على جذع النخلة فبدا هو وهى مربوطين بحبل واحد . وأخذ يصعد وهو يندندن .. سعيدا مسرورا . فلن يكون هناك بعد



ولا رأس جابر ابن الحداد  
الذي رماه بحجر صغير ..

الآن من يمد يده إلى ثمراته .. ماذا عليه لو قطفها غير كاملة النضج وعندما يعلق العراجين في سقف إحدى الحجرات سترطب كأنها لا تزال على أمها النخلة . وأخذت أطراف قدميه من الأمام تتداولان الصعود . على ذلك السلم الخطر الذى صنعه قطع الجريد عن النخلة .. على التعرجات التى تذكر العين بمنظر شريط من الرمل انحسر عنه الموج .

الأرض تبتعد عنه والسماء لا تقرب منه .. يا إلهي .. ومنظر الحقول رائع ساكن .. كسجادة خضراء وأخرى ملأتها الزهور البيضاء تلك هى لوزات القطن .

وعلى مقربة من العراجين توقف ثم نظر إلى الأرض وتبسم . أحس بنفس تلك الموجات ليده المتابعة التى تشبه ترادف الموج .. خيلاء وروحانية وقوة . ثم صعد قليلا ما حتى صارت العراجين أسفل منه وألقى نظرة على الجريد المتكاثر واستل سكينه وأخذ يجز وسقط الجريد على الأرض واحتك بالعراجين فسقط معه بعض البلح وعندئذ توقف وأخذ ينظر إلى الأرض ولم يفطن إلى أن هناك ثلاثة من الصبيان على رأسهم جابر ابن الحداد كانوا متوارين فى ظلال البوص يرقبون حركة الرجل . كانوا قد سبقوه فلما لحقهم ورأوه من بعيد تواروا عن عينيه ، وجلسوا فى مخبئهم ينتظرون الفرصة لكنهم رأوها بعيدة المنال أما هو فقد استمر فى عمله . أخذ يجز الجريد المتكاثر على مقربة من العراجين والجريد يتساقط ، لكنه بعد قليل توقف خائفا مرتاعا مقطوع النفس يمسك نفسه بجبل الصعود حتى لا يسقط من الخوف .

كان عليه أن ينتظر فى هدوء حتى يرى ما سيؤول إليه الموقف ثم يصرخ بعد ذلك . لكنه أدرك أن الصراخ لن يجدى شيئا . فقد أصبح الطريق مقطوعا عليه . محاصرا لا يستطيع النزول إلى الأرض وكل دقيقة تمر تدنيه من الهلاك



المحقق .

كانت العراجين على مقربة من رجليه المرتعشتين والسماء تبدو له من خلال السعف . وعندئذ دعا الله ..

وأحس بالحنجل وهو يبتهل . وكأنه يسمع قهقهات صغيرة منبعثة من الأرض أعلى قهقهة فيها هي قهقهة جابر ابن الحداد الذى شج رأسه من أجل بلحة ، وتعارك معه أبوه ولامته فى سبيله زوجته ولم يلم نفسه بل سارع بجمع الثمار قبل الأوان . وها هو ذا غراب يحوم على القرب منه فسمع أصواتا أربعة من بينها صوت جابر تنادى الطائر بأن يرمى لهم بلحا من فوق وعندئذ هتف الرجل : « تعالوا أيها الأولاد .. تعالوا .. خذوا بلحا .. تعالوا » . كان صوته عاليا صريحا وأخذ يهر العراجين برجله فيتساقط ما عليها . وجرى الأولاد يهللون به والسماء تمطر بلحا . كان كل شيء هين .. وود هذه اللحظة لو احتواهم جميعا وقبل أفواههم وهي مليئة بالثمار .

لكن ما لبث أن لفت نظرهم إلى الخطر الذى يهدده وعلى مقربة منهم ولكنهم لم يروه ..

كان يهتف بصوت خائف باك عجب منه الصبيان :  
— « أفعى .. أفعى .. أفعى » .

ونظر إليها الأولاد مرتاعين . رأوها طوقا ملفوفا حول جذع النخلة على بعد ثلاثة أمتار من الأرض وعليها ظل النخلة الصغرى فبدت شبه مخدورة والرجل محاصر فوق .. رآها أول الأمر وقد خرجت تسعى حثيثا إلى تحت من قلب النخلة حين كان يبحث عن الجمار . فخرجت من قلبه . لعلها كانت فى وكرها أو كانت تتصيد أفراسا أو تأكل من الثمار فوق النخلة .

وشل الخوف حركة الرجل فإن عادت قتلته وإن نزلت احتك بها . وهو والنخلة الآن جسم واحد . حبل الصعود يجمعهما والموت على بعد أمتار منه .

وهتف جابر ابن الحداد بأعلى صوته :

— « لا تخف سأعود إليك » .

ثم جرى .. صبى فى الثامنة من عمره حليق الرأس واسع الفم مبجوح الصوت . جرى بسرعة وفى يده جريدة من تلك التى سقطت من النخلة ثم ما لبث أن عاد .

لم يغب كثيرا عنه لكن هذه الدقائق كانت أشبه بدهر طويل . الأرض تحته ضباب والسماء فوقه قبة مقفلة الأبواب . يخشى الله ألا يسمع دعاءه لأنه لم يحبه فى خلقه .

وعاد الصبى وخلفه أبوه ومعهم تلك الجريدة التى تحولت إلى عصا طويلة ربط فيها جابر وأبوه قضيبا من الحديد المحمى بالنار كان أشبه بالجمر ورفعوه إلى فوق وتسلق الرجل النخلة الصغيرة من الناحية التى يمكن أن يفاجئ منها عدوه .. من حيث لا تراه الأفعى ثم وضع على جسمها القضيب المحمى وضغط فأخذت تتلوى لتلف نفسها تماما حول القضيب الساخن . وعندئذرمى الحداد سلاحه بكل ما عليه إلى الأرض حيث أجهز عليها الصبيان ..

وصاحب النخلة فوق لا يصدق ما يرى .. لكنه بعد قليل سمع نداءهم له :  
« انزل .. انزل فالطريق أمان » .

لكنه صعد .. ونظر إلى السماء فإذا بها ذات ضوء جديد كأنها استنارت بنور الفجر ، والأرض تحته ليس عليها ضباب ، وكأن النخلة قصيرة جدا يرى تحتها كل شئ .

غير أنه صعد حتى وقف على العراجين وأخذ يهزها بقدمه فتساقط الثمر الناضج وهو يقول لمن على الأرض :

— « كلوا ولا تخافوا .. كلوا .. ولا تخافوا » .

المخدع

( حافة الجريمة )

كتب إليها بعد تسلمه عمله في هذا البندر الصغير يصف لها الليلة الأولى من إقامته في هذا البلد الواقع في أطراف الدلتا على حدود الصحراء .  
« مركز » عادي أو أقل من العادي إلى حد ما . يقع على شريط السكة الحديد شمالى « مديرية التحرير » .

وكان فرحا بترقيته : ولم تكن فرحته إلا للمعنى الأدبى الذى حصل عليه ولأن زوجته ستصبح هى الأخرى منغمسة فى هذا الشعور . فهو سيصبح ناظر المدرسة الإعدادية فى هذا المركز ولعله أصغر ناظر فى الجيل .. تجلil زملائه وخلانه . وشعر أنه نال ثلاثة أشياء فى وقت واحد : رياسة ، ونقله ، ثم .. زواج .

كان القطار يتلکأ به عبر الصحراء بطريقة غير مبالية . قطار ركاب من المفروض أن يصل به قبل حلول المساء حيث يقضى الليلة الأولى التى كتب إليها بتفاصيل وقائعها الطريفة . ولذله أن يشاهد هذا الطريق الغريب عنه الذى لم يعبره قبل ذلك مرة واحدة . بمحطاته المتقاربة وأسمائها الغريبة . وعند وصول القطار إلى محطة .. ( إنه لم يعد يذكر اسمها ) فقد وقف القطار فيها ثم غادرها ثم وقف على بعد بضعة عشرات من الأمتار عندما تلقى ناظر المحطة إشارة بحجز قطار الركاب هذا لأن إحدى عربات قطار بضاعة جنحت على الخط .. الطريق المفرد .. فتأوه كثير من الركاب وتمطى بعضهم وقال أحد الذين تعودوا مثل هذه الحوادث وهو يتخذ من حائط العربة مسندا لرأسه :  
« يحيا النوم لثانى يوم » ..

كان الجو خريفا والنهار قصير الطول والشمس تبدو من زجاج النافذة المقفل نحو الغرب على مسيرة نصف ساعة من رحلتها اليومية . فشغله حسن

المنظر عن حقيقة الورطة . لم ير في هذا الذى حدث إلا شيئا طريفا . مفاجأة ذات هزة حلوة تبعث الضحك والخوف مثل تلك التى تعمل فى الحفلات بين الأصدقاء . فتشاغل بمنظر الظلال على التلال والخيوط الذهبية التى فصلتها الشمس أثوابا محبوبكة على الكتيان التى تغنى بها شعراء البادية قديما وربطوا بينها وبين أجمل ما فى أجسام النساء .

وأخذ يتحسس جيوبه فى حركة نصف واعية . حركة الجالس الذى تصلبت عضلاته فهو يريد أن ينشطها . فأخرج سيجارة وأشعلها ثم .. محفظته الجلدية وجعل يفحص أوراقه القديمة التى فيها . فوجد عنوانا لشخص التقى به فى الترام تعرف عليه وتبادلا عهودا بالتزاور . ثم نسى كل عهده . وإيصالا من أحد التجار بمبلغ كان ديناً عليه . وصورة لأخيه . وصورة لصديقه .. ثم صورة لعروسه هذه التى لم تزف إليه بعد فابتسم .. « زوجة الناظر .. ما أعظم أن يزورها زوجات المدرسين فى كل ليلة جمعة ويراهن وهى تودعهن عند السلم وتقف لتثرثر على طريقة النساء وقد أخفت بمهارة كبراء زوجة من هو رئيس لأزواجهن !! » .

وشعر أنه يريد أن يقهقه من دغدغة هذا الخاطر له . وشاع غرني . يقع على كتفه المسكة بالصورة فتشعشت به كأن هالة علوية وقعت على وجهها الحلو . وخيل إليه أنها تبتسم له . وتذكر أغنية كان يحبها . كانت تصل إليه من راديو مجهول على بعد ساحق فلا يصل الصوت إليه إلا وقد فقد كل حدة واحتفظ فقط بشحنة الهمس وسره وسحره . ومن خلال شفتى الصورة خيل إليه أنه يسمع الصوت .. فكأنها تغنى له .

ولم يلبث أن وضع كل هذا وأمسك بورقة أخرى . فيها عنوان .. عنوان لوكاندة صغيرة وحيدة لرجل يوناني فى المركز الذى يقصده أخذه من صديق عن طريق صديق هو من أهل المركز . وأخذ يقرأ العنوان « لوكاندة الهناء »

.. « ما أجمل حجرة بسرير واحد تطل على معذنة المسجد حيث يسمع الصوت الندى لمؤذن كفيف » .

واستراح لهذه الخواطر . لم يعد يذكر شيئاً عن القطار أهو ثابت أو متحرك . لكنه جعل يستعرض ما يعلم عن المكان الذى هو فى الطريق إليه . وكل ما اختزن عن عروسه الجميلة .

ولاحظ نظرة الكئيبان فرأى قرص الشمس فى موكبها الذهبى يحث الخطا بين كئيبين ثم ما لبثت أن غابت . فمدد أحد الركاب ساقيه وتأوه ونظر من خلال الزجاج إلى النهار الذى ولى وهمس لنفسه كأنه فقد الأمل فى تحرك القطار ثانياً : « ليلة عتمة » لكن هذا التشاؤم أضحك « الناظر » الذى أخذ يختلس إليه النظر من خلال أفراح نفسه : « أليس جائزاً أن يكون هذا الشاب مدرساً .. فى مدرسة إعدادية .. وربما تحت نظارتى » وهز كتفه : « كله جائز » ..

لكن الوقت يمر والقطار محجوز . فجلس يتأمل العالم الخارجى بعدما شبع من عالمه هو .. عالمه الداخلى العذب المليء بالغموض الساحر . ففتتح النافذة وشم رائحة الصحراء . واستمع لصمت الليل ممزوجاً بأغنية ريفية من راكب العربى الأخيرة . ولم يكن فى استطاعة شيء ما أن يدخل على نفسه التعاسة . كان لابد أن تفرغ أولاً من حبورها فالملآن لا يملأ . ولم يكن هناك موضع لقطرة جديدة . كل هذا كتب به إليها فى الرسالة الأولى عقب تعرفه على ما حوله . فجلس يخطط إليها رسالته كأنه يهمس إليها بالحديث .

« وعندما صفر القطار يا حبيبتي وتحرك شعر الركاب كأنها هزة البعث .. بعث من غير حساب كأننا مدعوون جميعاً لدخول الجنة » .

وعندما وصل إلى المحطة المطلوبة كان الوقت قد قارب منتصف الليل .  
وشبط التل العالى الذى تقع المحطة عليه آخذاً طريقه ككل غريب . وأحس  
باللهفة والغموض والخوف والفرح . ورائحة بقايا « سوق » تفوح من  
الشارع الصامت . عطن وزفارة ورائحة طيور . وأشجار وحشية تلقى بظل  
متحرك مع نسيم أكتوبر .

ورأى هناك على مسيرة بضعة عشرات من الأمتار أحد رجال الشرطة يمشى  
الهوينا أمام مكتب البريد المغلق فألقى عليه تحية المساء وسأله عن « لوكاندة  
الهناء » .

— لوكاندة الهناء ؟! .. لوكاندة إيه ؟! ..

وكان الشرطى ممسكا بغضروف أذنه .. أذن نفسه بالطريقة التى تدل على  
حرص السامع على الاستماع . فقال « الناظر » :

— نعم .. نعم .. لوكاندة الهناء . هل هناك أحسن منها ؟!

وعند ذلك قهقه الشرطى . ضحكة طليقة فى الليل النائم . ضحكة  
أخرجت الرجل من عميق أحلامه وسمحت للخوف أن يدب إلى قلبه .  
فوقف يتهته .. يقول ولا يقول .. وعندئذ شرح له الشرطى حقيقة الموقف .  
فقد كان هناك حقيقة لوكاندة بهذا الاسم . حجرتان من شقة إغريقى عازب  
توفاه الله فى الأسبوع الماضى . وليس فى البلد سوى المساكن .

ساد الصمت .. أشبه بالذى يغطى الوجه وهى تنتظر كلمة « آلو » على  
أطراف الآخر من التليفون . نطق بعده الناظر سائلا :

— وأين يمكن أن أنام ؟!

تلعثم الشرطى لأنه أصبح فى موقف حرج . حراسة إنسان وتحقيق الأمان  
له . رد متلعثما :

— آ .. آى .. ممكن أقول تفضل عندى .

— متشكر .. أظن هذا ليس معقولا .

— آ .. آى .. آ ..

— أنا ناظر المدرسة الإعدادية الجديدة .

فتهل وجه الشرطى : « لو رأيته يا حبيبتى وهو واقف فى النور الخافت ووراءه الباب المصمت المتين لمكتب البريد . كان على وشك يحرك بندقيته ليؤدى بها تحية عسكرية لى عندما علم أنى ناظر المدرسة الإعدادية الجديدة التى فيها ابنه . وأخرج علبة السجاير وأشعل لى سيجارة باحترام حتى كاد يحرق أنامله ثم أخذنى وسار بى . أمسك بذراعى كأنه يخاف على من مجهول وسرنا » .

صعدا معا المرتفع الذى تقع عليه محطة السكة الحديد وسارا تطقطق أحذيتهم على بلاط الأسمت الكبير . وعند المبنى المكون من حجرتين مظلمتين ومخزن دق الشرطى بحذائه وكعب بندقيته على الباب وهو يهتف باسم رجل . استيقظ من بين أكداس البضائع وخرج خائفا . فأخذ الشرطى منه مفتاح حجرة الاستراحة وشمعة وذهبا إليها .

وكان رقاد الناظر حتى الصباح هناك على دكة من الخشب وفى النافذة المغلقة كانت الشمعة تذوب . وحيدة فى الحجرة العالية العارية الأرضية . وفى الخارج نسيم أرعن يلعب بذوائب شجرة : « كنت مستلقيا على ظهرى سعيدا بهذه الوحدة والتجربة والغموض أفكر فىك يا سوسن . ويخيل لى أنك ستطرقين الباب كطيف إلهى . ثم تفرقرين بضحكة حبية لكنها تسقى قلبى .. وكان هناك فأر يقرض شيئا ما خارج الحجرة كميرد لا يعرف الملل . وعند الفجر استيقظت على الصوت الندى من المئذنة القرية فقمت أنظر إلى النهار من النافذة » .





على أن موعد الزفاف لم يكن باقيا عليه سوى أسبوعين بعد تسلمه عمله كناظر للمدرسة .

وعند مدخل البلدة كانت غابة من النخيل يفصلها الطريق الزراعي عن الحقول والمستشفى . وعلى مقربة من غابة النخيل فضاء يلعب فيه شبان الحى كرة القدم ثم منزل من طبقة واحدة وأربع حجرات وحديقة برية زرع فيها كل شىء كما اتفق .. لوف ولبلاب وخروع ودفلى وأشجار ليمون ليس فيها إلا الشوك .. وجرجير تفوح رائحته العطرية الحريفة فى مدخل البيت كعلامة لا تتغير : « لو رأيت الجنة الصغيرة يا عزيزتى . ستطل حجرة نومنا على شجرة الدفلى ذات الأزهار الوردية والأوراق التى تشبه السيف . عيب المنزل أن الفضاء الذى يحيط به فضاء مباح .. أجرته بعد يومين نزلتهما ضيفا على أحد المدرسين العزاب . وقد وجدت لوحا من الزجاج مكسورا من الكرة التى ارتطمت بالنافذة ذات يوم وأنا نائم . لكن لا بأس . فعندما يعلمون أن الناظر هو الذى سكن هذا البيت سيحتشمون لأن فيهم تلاميذ كثيرين . لابد من حضور الأثاث قبل الزفاف ببضعة أيام لأشعر أنك معى ولو كنت وحيدا » .



وعندما وصل إلى المدرسة بعد سكنه بيومين أو ثلاثة كان اللقاء العادى بينه وبين المدرسين . وتحيات الصباح . وفى الفسح والدقائق الخمس كان هناك على التوالى هذه الكلمات :

قال له الأستاذ عبد الوهاب مدرس اللغة العربية :

— هل أنت مسرور من مسكنك الجديد يا حضرة الناظر ؟

فرد وهو يوقع بعض الأوراق وبشroud :

— جدا ...

فهمهم الأستاذ :

— الحمد لله ..

وسأله الأستاذ بسطا مدرس الرياضة :

— كيف حال البيت الجديد يا حضرة الناظر ؟

فرد عليه وهو يراجع جدول الحصص العام :

— رضا .

فهمهم الأستاذ :

— الرضا من الرضا .

ثم سأله الأستاذ الطويل مدرس التاريخ والجغرافيا :

— هل أعجبك جو المسكن يا حضرة الناظر !؟

فرد عليه وعينه معلقتان بالشرارة والنار في ولاعة السجائر :

— جنة .

فهمهم الأستاذ :

— تنقصها الحورية .. لكن .. آآ .. غدا تأتي .

ثم ضحك في ارتباك وخجل .

وها هي ذى الحورية قد أتت . ومر على الزواج أسبوع . يجلسان في الغرفة القبلية التي فيها المخدع ويطفئان النور ما عدا المصباح المعلق في الصالة الذي يبعث إليها بشعاع هادئ . ويتحدثان ويلقيان بنظرهما من خلال أغصان الحديقة البرية إلى غابة النخيل نحو الجنوب . وقد بدت رقعة الأرض الفضاء غير المحدودة المهمة التي يستغلها الشبان في لعب كرة القدم .. بدت كميدان معركة عراه الصمت . كأنما امتص النخيل والحقول بقية الضجيج . وكان الزوجان يتحدثان عما ينبغي أن يقدم غدا ( الخميس ) للضيوف المهتمين وبعض زوجات المدرسين سيحضرون للتهنئة . وستفرجهن على الهدايا

والألطاف وكل النفائس .. تلك السيدة .. زوجة الناظر .  
وتخيلها وهى تودعهن عند الباب وقد وقفت تخفى كبرياء لم تشب بعد عن  
الطوق وتعد برد الزيارة .

وكان ذلك فعلا فى المساء التالى . وانصرف بعض الضيوف . ثم دخلت  
العروس على زوجها . جلست على كرسي مرآة الزينة تعيد تسريح شعرها  
ولكن وجهها كان متغيرا . يبدو عليها ما يمكن أن يسمى تعباً أو قلقاً أو خوفاً .  
تكثر من التلفت والحديث . وتشعل النور فى كل مكان . أما هو فقد كان  
ممدداً فى الفراش مرهفاً سمعه إلى صوت الهواء فى الخارج وأزيز محرك لإحدى  
السيارات التى ترحل فى آخر السهرة . وقالت العروس بلهفة :  
— عبده .

— نعم .

— إن زوجة الأستاذ الطويل قالت لى كلاماً ضايقنى .  
فرد مداعباً :

— وأنت عروسة . له الويل هذا المدرس من حضرة الناظر ما دامت  
( حرمه ) قد ضايقت ( عقيلة ) الناظر .

وأخذ يقهقه . لكن المشكلة بدت أعمق مما تصور هو فقد همست سوسن  
وهى تلوذ بأحضانه قائلة : « إن هذا المسكن هو البيت الوحيد الذى بنى فى  
هذه الأرض الفضاء . ولم تكن هذه الأرض سوى مستنقع ردم بركام مقبرة  
قديمة .. موضعها عند الضريح .. آه .. هل رأيت .. لابد من الانتقال إلى سكن  
آخر » ..

فأخذها فى حضنه كأنها طفلة . وأخذ يقول بهدوء كصوت الرقية .  
— علمت هذا قبلك . نعم ... كما تقولين ... لم يسكنه أحد قبلنا .. لكن  
صاحبه سكنه مدة من الزمن .. نعم .. كلنا نلهو ولا ندرى ماذا تحت

أقدامنا . وهؤلاء الشبان الذين يلعبون الكرة يدوسون على .. ماذا أقول ؟! .  
ذلك واضح .. لكن إن شجرة الدفلى التى تحت نافذتنا أزهارها الغنية فى لون  
الورد . هذا ما أراه فقط لا غير .. ولاعبو الكرة كل أصيل هناك لا يذكرون  
إلا إصابة ( الهدف ) .. آه .. يجب أن تفهمى .. فقد أثار سؤال المدرسين  
شكوكى .. لكن .. إن مخدع العروس فى هذا البيت أشبه بحفلات الانتصار  
بعد الحرب .. إن الحياة تلعب لعبة الشمعة التى كنا نلعبها فى ليالى رمضان ..  
فحين تنتهى الشمعة نأخذ ذوبها ونعيد صبها ونضع لها شريطا جديدا ..  
ونشعلها .. نأخذ الحى من الميت والنور من الظلام .. هكذا هى .. ماذا يمكن  
أن يحدث حين يكمن المحاربون فى المقابر المهجورة ويطلقون النار على قافلة  
تعبر الطريق .. لا تخافى .. فغدا أزرع لك شجرة برتقال فى هذه الحديقة  
وسأبخر أشجار الليمون . هل رفضت الحديقة أن تخرج نباتها من أجل الموتى  
.. بتاتا .. وكثير من العشاق يلوذون بالمقابر .. دفعة الحياة تكتسح كل سد ..  
على أننا لن نقترف ذنبا .. نحن نزرع الحياة فى رقعة بعيدة .. هل كانت هذه  
البقعة تحلم بأن تكون مخدع عروس .. لكن .. لماذا نغالى .. إنها أخرجت  
الأزهار والفاكهة ولعب الشبان فيها الكرة وسجلوا هزائم وانتصارات .. هل  
غلبك النوم ؟! تبسمين ؟! حسنا .. شفتاك فى لون براعم الورد .. إن الحياة  
تلعب لعبة الشمعة . كما كنا نفعل بشموع رمضان .. نعيد صبها وهى تعيد  
صبنا .. الحى من الميت والنور من الظلام .. هذه هى الطمأنينة قد بدت عليك  
.. هل تسمعين غناء هذا الطائر .. أهو فى النخيل أو على شجرة التوت ..  
خمنى ؟!

همست :

— على شجرة التوت .. آه .. لا .. أقرب .. إنه على إحدى أشجار الحديقة  
.. لا .. أقرب .. أسمعها هنا .



لا تخافى .. إنها أخرجت الأزهار والفاكهة ..

— في الحجرة ؟!

— لا .. هنا .. هنا ..

وأشارت إلى صدرها ..

واحتضنها . وبدأت تتأكد أن الحياة أقوى من أن يعترضها شيء . حتى  
هذه القوة الجبارة التي يكمن الخوف من سطوتها في نفس كل إنسان وطائر .



لعبت كل يوم

هذه الأوراق تذكره بدنيا قديمة .. دنيا قديمة ١٩. لا .. دنيا جديدة يعيشها بكل أبعادها .. إحساسه بها يأخذه من كل جانب .

وعندما وقعت عينه على ورقة ( الشايب ) خفق قلبه .. فهو الآن راجع من هناك .. ترك الرجل الذى نمت لحيته أخيرا واختلط فيها البياض بالسواد حتى صارت رمادية — فى مثل هذه الصورة الواقعة بين ثلاث ورقات أخرى ليس بينها ( ولد ) وزوجته تكرر بالضحك وتنظر إلى بطنها المتكور . خمن بجواشئ إحساسه أنها متفائلة .. آه فى أوراقها ( ولد ) وربما فى بطنها ( ولد ) أما هو فإنه يرى العقدة الواقعة بين العينين فى الصورة على هذه الورقة ويتذكر صورة الرجل الذى كان فى زيارته .

والأوراق تمر بين يديه وهى توزع .. زوجته توزع .. وهو يرمى ولا يأخذ أو يرمى ويأخذ .. غير أن نكهة هذا العالم الصامت المائج بالأرقام والصور ملأت حواسه . فليس من الضرورى لأى عالم لكى يشغلنا — أن تملأه أشياء حية لأننا قادرون — كناس — أن نضفى عليه الحياة من خارجه كشأن الصحراء . وكشأن هذه الأوراق .. هذه « الكتشينة » إنه يحس إزاء كل ورقة بمعنى شخصى ومعنى عام . هذه الأوراق التى ربطها الناس بالحظ والمهارة أخذ بعض أفرادها صفة شخصية تكاد تكون عالمية .. فيها السعد والنحس لكنه هو شخصيا يشم رائحة كل ورقة . كأنما قطفها من أشجار الحياة .

ورنت ضحكة زوجته وصفقت عندما أحرقت « ولدا » كان فى يده .. سبقته بجمع ما على المنضدة يولد كان معها . وعند ذلك أهوى به ورماه ونظر إليه نظرة إشفاق .. حملت إليه امرأته وقالت له : « انظر .. انظر ماذا فعلت



به .. » .

لكنه مضغ ضحكته وبدأ يوزع .. نظر إلى هذه الورقة وكأنها فوق مستوى الحوادث : « ولد .. شاب انهزم .. لا بأس .. كل شيء يتحمله الشاب حتى الهزيمة الساحقة » .. وكانت الصورة تنظر إليه على المنضدة كأنها تؤمن على ما يقول بتلك النظرة المحددة المنبعثة من العينين والأنف المستقيم الذي يذل على الصلابة .

وجاء صوت زوجته وكأنما أدركه الفتور : « العب .. مالك سرحان » . وكان يتذكر بهذا الأنف أنف شاب آخر . أكبر منا سنا ، مهندس مبان يعمل في أسوان منذ البدء في بناء « السد العالي » .. لا يراه أحد .. أوحش الجميع ولكن ظروف العمل قد تقص من أطراف الوفاء لأنها تأكل كل فرصة .. حتى الأعياد لم يعودوا يرونه فيها .

وكانت أول ورقة نزلت إلى جانب « الولد » على المنضدة هي « الشايب » مرة أخرى . وضحكت الزوجة : « وهذا أبوه » ولم تكن تدرى وقع هذه الكلمة على قلبه . فمع هذا الابن وهذا الأب سهر زوجها ليالى لا تستطيع هي أن تدرك عمقها . فهما يلعبان لعبة اثنين يتسليان . يجعلان من هذه الأوراق دواء للملل . ولم تدخل حرب الأعصاب في اللعبة بينهما قط . أما اللعبة القديمة فقد كانت مبنية على حرب الأعصاب وهو شخصيا كان الضحية الممتازة لهذه اللعبة .

ففى مساء كل خميس كانت تأتى لزيارتهم عمتهم « مفيدة » ومعها « عنايات » .. لماذا كان يرى في صورتها ملامح من صورة « البنت » في أوراق اللعب .. كان ذلك قبل الآن .. ذقن مدبب وعينان كحيلتان ولونها الزاهى ووجهها الطيب المائل إلى الشحوب يكاد يكون وجه راهبة .  
كان يتخيل هذا قبلا .. أيام زمان .. أيام كانت زيارات عمتهم « مفيدة »

تأتى بنظام شبه ثابت حتى كاد يتحول إلى ظاهرة أسبوعية .  
وفى هذه الليلة بالذات لا يخرج والده إلى « المقهى » للسهر مع أصدقائه  
بخلاف معظم الناس الذين يفضلون السهر خارج المنزل فى الليالى التى تسبق  
الإجازات .

وتطوف بالبيت حركة غير عادية أشبه بشعور الإنسان بالميل إلى الرقص ،  
كل شئ فيه فرح حر منطلق يكاد يقفز كعصفور .  
وأتاه صوت زوجته عندما وصلت أفكاره إلى هذا الحد تقول له : « هيه  
.. عشرة طيبة » وتنهد . وشم رائحة الورق .. شكلها سعيد يوحى  
بالطمأنينة حقيقة مثل صاج ملء بكعك العيد .. إنه يشم من هذه الورقة  
رائحة الزبدة والفانيليا .. إنها على كل حال ذكرته باجتماع الأسرة . أبوه جالس  
فى جلاباب أبيض بعوده المتوسط ولونه الأسمر على ملامحه بواذر سرور وبقايا  
« شقاوة » أيام الشباب .

كانوا يجلسون على الأرض المفروشة بالكليم فى حجرة إضافية سموها  
حجرة الشعب فيها سرير تقليدى موروث عن الأجداد كان الأب يشم فيه  
روائح الذين ذهبوا عن الدنيا وصوان ملابس بمرايا ظاهرة تعكس هذا الجمع .  
وبعد العشاء يلجئون جميعا إلى هذه الحجرة بلا استثناء فيدخل الأب  
ويتخذ مكانه المعروف فى الزاوية التى يصنعها الصوان مع الحائط . كتفه  
يلمس المرأة وإلى ناحية منه زوجته وإلى الناحية الأخرى شقيقته . ثم يجلس  
الباقون كما يتفق . ثلاثة من البنين وبنتان .. البنين .. أكبرهم « سمير » ذلك  
المهندس وأصغرهم هو .. ذلك الذى يلاعب الآن زوجته .. وحدهما  
بلا أولاد . إلا ذلك الجنين الذى كور بطنها وأسعد قلبها وجعلها تقبل كل ولد  
من أولاد « الكتشينة » موهمة أنها فرحة به كلعبة . وهى فى الحقيقة تعبر عن  
أمنية قلبها . غير أن « عنايات » كثيرا ما كانت تعتمد الجلوس إلى جانب سمير



والأوراق تمر بين يديه ..  
زوجته توزع .. وهو يرمى ولا يأخذ

( حافة الجريمة )

فيراقتب الأب ظهورها بذكاء وصمت .  
ما كان أجمله فى الجلباب الأبيض حين يتربع ويأخذ نفسا عميقا ويبدأ  
فى توزيع أوراق اللعب فى تلك اللعبة التى أسرت قلوبهم جميعا وشحنتهم  
بالذكريات « لعبة الشايب » تلك التى كان الحياء والغش وربما الأعمال غير  
المشروعة فى قانون اللعب بين الضحكات أو النكت أو الصمت أو إسبال  
الجفون أو الحملقة أو إشارات الإرشاد الخفية التى تعتبر بمثابة خيانة .  
لم يكن فى وجه والده هذه التجاعيد ولم تكن له لحية نامية فى ذلك الوقت  
ولم تكن عليه ملامح « الشايب » الذى يراه الآن بعد أن رمت زوجته بورقة  
على المنضدة .

أما هو فقد كان هو الحائط الواطى الذى يتسلقه الجميع .. إنه يعترف  
بينه وبين نفسه أنه غير ماهر فى لعب الورق . والأدهى من كل هذا أنه غير  
ماهر فى تزييف إحساسه ومشاعره ويبدو أن ذلك ضرورى فى كل لعبة ..  
حتى لعبة الحياة نفسها ..

فعندما يجتمعون على شكل دائرة كثيرا ما كان يجلس جنب سمير .. فيكون  
هو فى ناحية وعنايات فى الناحية الأخرى .

وتقسم الأوراق بالتساوى وفيها « شايب » واحد ويخرج كل فرد  
الأوراق المكررة فى حصته بحيث يصبح مطلوبا منه أن يحصل على ورقة  
جديدة من جاره بالاقتراع .. ظهر ورق جاره إليه ويسحب هو ورقة فإذا  
كان معه زميلة لها تخفف من ورقة جديدة . وتجرى العملية هكذا باستمرار .  
كل يأخذ ورقة جاره فإذا كان لها نظير عنده أو شك على البراءة وإلا تخلف  
حتى لا يبقى من المجموعة سوى اثنين مع أحدهما « الشايب » الملعون  
والأخرى بها نظير ملاعبه تحمل العدد المعروف من واحد إلى عشرة .

ولمن يبقى معه « الشايب » أخيرا « علقه » مكونة من ضربات بحزام الأب وينطق بالحكم أيضا أوراق « الكوتشينة » حين يسحب المهزوم ورقة بالقرعة تحمل رقما بين واحد إلى عشرة هو نفسه عدد الضربات التي سيأخذها بالحزام على رجله أو يده من اللاعبين جميعا .. قد تكون عشرة في ثمانية لاعبين بثمانين ضربة لا تقبل التخفيض .

وسألته الزوجة وهى تتمطى وتنهض فتحضر كوبيين من عصير الليمون :  
« هل تعرف لعبة الشايب » .

— أعرفها .. لكن لعبها يستدعى عددا ..

— عندما نخلف أربعة أولاد .. أعتقد أننا نكون قادرين على لعبها ..  
وقرقرت بالضحك وخرجت من الحجرة . فنظر إلى ظهرها الذى قوسه الحمل . وأخذ أوراق اللعب وجعل يعبث بها بلا نظام عبث من يطوف بأرض يعرفها لكنه — فقط — يمضى فيها كيفما اتفق .

« الدوه الطيب .. الآس .. العشرة الطيبة .. ذات العلامات التى تشبه الزهرة .. آه .. » .

وذكرته الأخيرة تلك العشرة السوداء بما حدث له ذات ليلة وهم يلعبون .. تذكر فاحتقر نفسه . قال رجل اليوم فيه لقلام الماضى : « إن الهزيمة لا تكون فادحة أبدا إلا بشرط واحد هو أن ييكنى المهزوم. » .

كان أبوه جالسا فى جلبابه الأبيض فى الركن بين الحائط وصوان الملابس وكان هو قد سقط فى اللعب ثلاث مرات فى هذه الليلة وحدها . وكان أبوه يضحك لكن ضحكه يوارى أسفا . وفى المرات الثلاث الأولى بلغ مجموع ما أخذته سبعين ضربة بالحزام بعضها على كفيه وبعضها على قدميه .

وعندما جاء دور الدور الرابع كان الثلاثة الباقيون فى المجموعة « سمير »

في الوسط وهو إلى شمال سمير و « عنايات » إلى يمين « سمير » .  
ودار الصراع .. ثلاثة .. رجلان وامرأة .. وكانت عيون المجموعة تتابع  
المعركة بفضول ودقة ولذة .. نظر سمير إلى عنايات نظرة ذات معنى .. نظرة  
تحمل معنى الحب والأمر أن تخرجه هو من المعمة وتبقى مع شقيقه وجها  
لوجه . ورأى الأب معاني النظرات في المرأة . وشعرت العمة بعمق العلاقة  
بين الاثنين غير أنها في سبيل أن تخصب التزدهر لا بأس عندها من أن يسخروا  
من الآخر .. أليس هذا لعبا ؟! لكنها لم تسأل نفسها عن الفرق بين ما يحدث  
في لعبة « الشايب » وبين ما يحدث في الحياة أليست كل قصة حب معقدة  
ذات رجل وامرأتين أو امرأة ورجلين .

ونظر الشقيق إلى سمير وعنايات عندما كان سمير يأخذ ورقة بالقرعة من  
أوراقها هي ، لم يفهم الشقيق شيئا مما يدور لكنه رأى نظرة جانبية تتجه إلى  
ورقة حاولت أن تجعلها منفصلة عن المجموع ونظر إليها سمير وتردد . ألقى  
نظرة خاطفة على العيون والأفواه كان المسبل منها يفهم والصامت منها  
يتكلم . كان الجميع يفهمون ماذا سيحدث . غير أن الشقيق تمنى أن يكون  
مع الفتاة وجها لوجه فهذا أفضل عنده مائة مرة من مصارعة أخيه .. هكذا  
قدر .

ونحو النظرة الفاترة امتدت يد « سمير » وأخذ الورقة وهلل فقد كانت  
ثمانية ولها نظير عنده . وعندئذ رمى ورقتين خارج اللعبة وأعطى الثالثة  
لشقيقه كنظام اللعب فأصبح مع الشقيق ثلاث ورقات ليس فيها « الشايب »  
ومع الفتاة ثلاث ورقات غير « الشايب » .

وعندما بدأ اللعب انتقل الشايب بغمزة عين من يد الفتاة إلى يده هو .  
إنه يذكر ذلك .. لكن أى أثر لم يبد عليها ..

لذلك حاول هو ضبط أعصابه ، وبدأت تسحب منه . وكانت مغمضة  
تقريبا لا يرى ماذا في عينيها . صراع صامت كان بين شخص ونفسه وأخيرا  
.. صدرت صيحة فرح تعقبها ضحكة عالية وقفزة كانت من عنايات حين  
أصبح « الشايب » وحده في يد الشاب .

وضج الجميع بالضحك . تلفت الشاب الصغير كالمذعور ينظر في عيون  
من حوله . كان صغار السن يتغامزون وسمير يتسم في صمت وفي عيني  
الأب شفقة وضيق .

وقالت الأم :

— طول عمرك خايب .. حتى الفتاة تغلبك ..

فقال سمير :

— النصر السهل تناله الفتيات باستمرار يا ماما ..

وقال الأب :

— كل من يرحمه منكم في الضرب يكون قليل الأدب .. يجب أن

يتعلم ..

ولعل الأب ندم على ما قاله لكن لم يكن هناك مجال لسحب كلمته  
أو تعديلها .

وبسطت أوراق الكوتشينة أمامه مقلوبة هكذا .. كما يعث بها الآن ..  
ظهرها جميعا له كظهر من كانوا يلعبون معه . كأنها المستقبل .. تعرف  
أسمائها بلا حواء وآدم .. ومد يده بارتباك . كانت ضحكات تهمس  
وضحكات تفرق وعين والده تنظر إليه كأنه يرشده نحو ما لا يعرف هو  
نفسه . وسحب ورقة ثم تركها قبل أن يكشفها .. وضحكوا .. وسحب  
ورقة ثم أخرى .. وكشفها .. وكانت العشرة السوداء هذه ذات الأزهار

الحزينة القائمة . وضع الجميع بالضحك خصوصا عندما مدت عنايات يدها إلى الورقة التي تراجع عنها فإذا بها « آس » يعنى ضربة واحدة من كل واحد لكن الآن لا بد أن ينال ثمانين ضربة ..

أحس ليلتها بالحزى .. هل فى اللعب سلوك مثل الحياة . لماذا كان ذليلا هكذا ؟ وألقى نظرة على « الشايب » وفجأة وبلا تدبير بصق على وجهه . وكانت هذه الحركة مولدا جديدا لضحكات أخرى . وبدأوا فى تنفيذ الحكم . بدأ الأب .. كان حانقا .. كان يود أن يمنح هذا الولد شخصية متحركة يستطيع بها أن يقرأ وجوه الناس ويلف ويدور . الذين هم أصغر سنا منه لم ينهزموا هذه الهزائم . أربع مرات متواليات ؟  
وبدأ الأب يضرب .. واحد .. اثنين .. آه .. ثلاثة .. أربعة ..

ضرب شديد لكن عز عليه أن يتألم فقد كان مقدرا أن أحدا غير أبيه يفعل هذا مثل سوسو الصغير مثلا الذى يريد أن ينتقم لضربه عند تعليم الحساب . لكن من الأب ؟ وصمت .

ومد رجله اليمنى . ثم رجله اليسرى . وعندما جاء دور « سمير » مد رجله فى وجهه حتى كادت تلمس أنفه فانتقم . وجاء دورها .. دور عنايات تلك التى أبعدت سمير عن المعركة ودخلتها بدلا منه ثم تغلبت عليه . وفكر .. هل يمد لها يده . أو يمد لها رجله .. لكنه فرك كفا بكف ومده اليمنى . أمسكت عنايات بالحزام الجلدى ورنّت إليه . كانت نظرتها شفيقة متكبرة كأنها تقول : « كفى ما أخذته بسببى » ولكنه عز عليه . فقال مستعجلا : « اضربينى .. اضربينى .. أنا راجل اضربنى » . فأخذت تضرب برفق شديد .. أحس كأن ضربها نوع مما يسمى « سد نخانة » .. وعندما انتهى الضرب وهمست بعدد عشرة لم يدر لماذا انخرط فى



البكاء .. بكى كأنما بعيون جميع المضطهدين .. وسمع همسا من الجميع :

— اخص .. اخص .. اخص ..

فلجأ إلى غرفة أخرى بينما استمرت اللعبة دائرة .

\*\*\*

ودخلت الزوجة بكوين من عصير الليمون . كان على وجهه أثر  
ذكرى .. لكنها قالت بصوت يحمل إغراء متعمدا :

— تقول عندما تصبح في أسرة عددها ستة ستلعب لعبة « الشايب » .

— نحن نلعبها كل يوم ..

فردت مندهشة :

— كيف ..

— في كل مكان . ليس بأوراق اللعب وحدها .. فقد تعلمت منها ذات

ليلة أن البكاء من الهزيمة أعظم انتصار يا أخذه الخصم ..

لم يكن يشغل بال الزوجة التي قالت :

— وما رأيك في عصير الليمون . حلو ..؟

— جدا ..

وكان وجهه على ورقة الشايب في هذه اللحظة ..

— إننى لم أر أبى منذ يومين .. لقد أوحشنى .. إننى أحبه .. والمهندس

سمير لم يحضر من أسوان منذ سنتين .. أبوه يسأل عنه خصوصا بعد ما لزم

فراش الشيخوخة .. لو كنت رأيته يا سناء وهو يلعب معنا لعبة الشايب

أقصد أبى .. كان في منتهى القوة .. أقصد الخلقية .. وهو الآن يدعولى .. منذ

ماتت أمى يا سناء وأنى لا يهضم الحياة .. هه .. عصير الليمون حلو ومر .. لكن .. هل يا ترى صمم سمير المهندس هو وعنايات زوجته على ألا ينجبا إلا هذا الولد الوحيد ..؟! أنا موافق على تحديد النسل .. مع مخالفتى فى نجاح تربية الولد الوحيد .

كانت الزوجة تنظر إليه باستغراب .. وكان هو كمن سكر تماما فخلط بين الأزمنة الثلاثة يتكلم عن الحاضر والماضى والمستقبل . وعيناه على صورة الشايب وفى حدقتيهما حنان كثير ..



العش

كانت تقطع الطريق في الظلام وحدها بعد أن تفرق عنها النسوة عائدة إلى دارها في الطرف الجنوبي من القرية في ليلة شتاء دفيئة ضبابها شفاف والسماء تلمع فيها النجوم .

ولم يكن بينها وبين الدار مشى طويل .. متلقة بشال من القטיפه أسود بهداب سخي غطى ظهرها . أهده إلهها عروس من قرية مجاورة في ليلة الدخلة .

ومرت على المسجد الهاجع .. على بابه المعقود على شكل قوس مهابة أدخلت على نفسها خوفا .

فقد ذكرت في ماضيها أشياء لا تحصى . منها ما هو خاص بها ومنها ما هو خاص بالناس ..

وحملتها الأفكار إلى منطقة نائية من العمر فلم تشعر بأنها ماشية . بل كانت مثل الطيف .. في غيبوبة منتبهة تعرف الطريق كطائر أصابه الصياد ولم يسقط فهو يهفو نحو العش .

وهناك على مقربة من الدار بقايا من حطب الذرة مرصوفة على شكل « تل » . تحرك بينها شيء فخشخش فجفلت وشعرت بالخوف لكنها ما لبثت أن سمعت نحنة رجل فخرج من كن صنعه لنفسه وحيائها تحية المساء . ولم يكن هو إلا الخفير . شم رائحة عطر فاح منها فطار النوم من عينيه . وكان يعرف أنها هي . ويعرف أيضا أين كانت .. وحين ضغط على يدها مباركها لم يكن يقصد إلا شيئا واحدا .. هو أن يكتب الله لها في أيامها الباقية سترًا يمنع العذاب .

ثم سارت وهى تحس خشونة يده ودخل هو إلى كنهه فى الخطب وجلس يستنشق رائحة العطر فى كفه الخشنة ويذكر أيامها الخوالى ..



وفتحت هى الباب فإذا الدار صامتة . لم يحيا وقت الدخول إلا أوزة دارت حولها تقطقط وتشد ثوبها بمنقارها . لم تلتفت إليها . كان همها أن تدخل وتستلقى فى الفراش . شدا تحس بالتعب . كان خمسا وستين سنة صبت أيامها ولياليها فى قالب من الحديد وحملته هى .. هذا هو عمرها . ولو أن جسمها لا يزال طريا لكان الوجه امتلاء بالفضون .

وأقفلت باب القاعة . ورمت شالها الكبير ورقدت بشياها .. وعندما لمس جسمها الحشوية المفروشة على الأرض أحست كأنها فى أرجوحة . كل شىء يميل . وبدت عروق الخشب التى سودها الدخان كأنها قضبان خمسة امتدت فى السقف تمضى إلى نهاية مجهولة .

كان هناك إلى جوارها مكان خلا لأول ليلة . هو مكان بنتها « تحية » التى تنام الليلة فى حضن عريسها . كان فى قلبها شرخ يتسع عند التهد . فقد أحست الليلة أنها تواجه شيئا غامضا يناقشها حساباتاً جل عاماً بعد عام .

وعلى الرغم من سعادتها بحل مشكلة زواج « تحية » فإنها تحس بمرارة ظاهرة . فقد كانت بنتها على وشك أن تصبح عانسا خطت نحو الثالثة والثلاثين من عمرها وهى فى قرية تنزوج العذارى فيها كما تؤكل فواكه الموسم .. أولاً بأول .. وليس هناك شىء يتلف . إلا بنتها .. بنت من ؟! بنتها هى ؟! الخاطبة والمأشطة .. التى يعرفها كل الرجال فى الظلام برائحة العطر . وكل قطعة من ثيابها تحكى قصة هدية .. من عذراء حسنة النية أو أخرى حل بها مكروه . أو أم هذه أو تلك . أو شاب أو رجل . فقد طالما جمعت بين الرعوس بكل الوسائل .

وتقلبت على الحشية ونظرت إلى خشب السقف ثم إلى مكان بنتها الخالى .  
وذكرتها .. استحضرت صورتها هناك بقدرة شديدة الدربة ..  
وشعرت بشيء أخير من السعادة .. لكن التهد جعلها تحس بالصدع .  
فقد ظلت في السنوات الأخيرة نهبا لقلق ولوم ويفترسها بضراوة . عندما  
كانت امرأة تدعو لبنتها « بالعدل » كانت كأنها توجه إليها اللوم .. كأنها  
تقول : تعملين لغيرك ولا تعملين لبنتك ..

وكانت تحية تسمع مثل هذا الحديث مغلفا في « دعاء » أو ملفوفا في  
« نكتة » .. عندما تجتمع مع النساء في الأفراح أو تلتقى معهن في السوق .  
فكانت تحس بالتعاسة وبشيء آخر مع التعاسة هو نقمة على الأم ..  
غير أن هذا لم يغير سلوكها فقد كانت موقنة بوجود الوقاية . مثل السليم  
بين المصلورين حين يعتنى بصحة نفسه . وكانت تعلم أن أمها عقبة في  
سبيلها . حتى وقعت ذات يوم في حادثة غرام ..



وتقلبت الأم على الحشية . فلم تكن تريد أن تنام . ذكرت هذه الحادثة ..  
ذات ليلة استيقظت على بكاء « تحية » فهاها الأمر . أحست بفزع من احترق  
القتل حين تمر فوق رأسه « طلاقة » . تذكرت الدهاليز وحقوق الذرة  
والإشارات الغامضة بتدبيرها هي . ثلاثون عاما وهي تزاوّل مهنتها حتى فقد كل  
شيء سحره وزال الغموض عن السر المقدس — في نظرها — بين الرجل والمرأة .  
لكن دمة بنتها أحرقت قلبها ..

أمسكتها من شعرها ورفعت رأسها من فوق الوسادة وجلست معها جنباً  
الجنب . وذكرت الأم في هذه اللحظة ومصباحها يراقص مائة قصة من الخداع  
في سبع قرى داخلة في دائرة عملها .. وصرخت في الفتاة ليلتئذ :

— تحية .. قولى .. من ضحك عليك .. لا تنكرى ؟  
وكانت الأم تصرخ والفتاة تبكى . وظلت المرأتان على هذه الحال ربع ساعة ضاقت بعدها الأم بنفسها .. وهمت بعمل خطير لكن الفتاة دفعتها فى صدرها بقبضة يدها بلكمة قوية . لكمة من تريد أن تتخلص من عار :  
— المسألة غير ما فى مخك .. المسألة مسألتك .. أنت .. أنت ..  
ومن خلال دمعها حكى حكاية حب .. حكاية ذلك الشاب الذى سحرها باستقامته واجتهاده .. وودعها وداعا صادقا حلوا قبل سفره للجنديّة .. وغاب ورجع .



كانت أمها فى هذه الليلة فى قرية أخرى بعيدة تجمع بين رأسين فى الحلال ولن تعود إلا فى ضحا اليوم الثانى . ووالدها المكفوف البصر راقدا على السطح يستجدى الليل نسيمه لأنه بدين ومصاب بالربو . وكانت تحية فى ساحة الدار تقوم بأعمال عادية . حين سمعت نقرة على الباب ففتحت . وعلى ضوء اللهب الآتى من الكانون رأت وجهه . كان قد تغير .. ازداد صحة وشبابا . وبدامدنيا ريفيا فى ذلك الوهج الأحمر . وابتسامته ساحرة . وهمس : « تحية !؟ وحشتينى .. من عندك !؟ » .

فلم ترد . كان ريقها جافا .. أحست أنها تريد أن ترتقى بين ذراعيه . لكنها تذكرت أين أمها !؟ وماذا تعمل . فأشارت بأصبعها إلى فوق السطوح . لكنه دخل وأقفل الباب . وسأل عن أمها . فأشارت كاذبة : « فوق » .  
وفى لحظات أحست أنه تغير . أخبرها همسا أنه مسافر غدا صباحا . وأنه مشتاق . وأنه يفكر فيها . وأنه يحمل لها هدية . وأنه يجب أن تقضى بضع دقائق لهما معا .. ثم .. تنادى على أمها لتعلن قدومه .

وظلا معا فى الركن بعيدا عن وهج الكانون . كانت مضغوطة بين ذراعيه  
ترتجف . وسمعت سعلة أثيها فحاولت إبعاده .. وجذبتة قليلا نحو النور فرأت  
على وجهه علامات غريبة .

فى هذه اللحظة أحست بالفرع .. ليس من الشاب لكن من العدوى ..  
فكل الناس يظنونها مريضة وإن لم يبد عليها المرض لأنها بنت لهذه المرأة .. وهى  
بينها وبين نفسها واثقة من سلامتها تماما .

وشعرت أنها عند الحافة ..

فانهاالت على صدره بقبضتها ضربا . وعندئذ أفلتت من فمه كلمة أشارت  
إلى عقيدة كبلها الحب وأطلقها الغضب .

قال فى صوت كالضحيق :

— تضربيننى !؟ .

ثم ضرب لها مثلا :

— « اكفى القدرة على فمها .. » .

وتركها وخرج .. ووقفت هى تردد فى سرها بقية المثل .. « تطلع البنت  
لأمها .. ضرورى !؟ ضرورى !؟ » .

وسافر هو . وسهرت هى تبكى فى الليلة التالية . حين استيقظت أمها على  
نשיجها .



وشعرت الأم بالتعاسة . أحست أنها عقبة فى سبيل هذه الفتاة . لقد اشتهرت  
هذه الأم بالتجارة فى الفاكهة المعطوبة ولو أن الغالبية العظمى من فواكهها سليم  
.. لكن ..

وتنهدت :





وعادت النقرة . وفتحت الباب  
فإذا به أمامها .. هو بعينه

— آه .. يا بنتى ..

ولم ترد ليلتها على هاتين الكلمتين . ثم رقدت كل منهما بجانب الأخرى .

\*\*\*

وها هو ذا الزمن قد مضى .. وإنها الليلة راجعة من عند « تحية » لقد تزوجت وهى على حافة الخطر .. بعد أن مات أبوها الفقيه الأعمى وكفت أمها عن « العمل » منذ سنوات لأن آلام المفاصل استبدت بها وأصبح جريها فى البلاد محالا .

وبدأت « تحية » تحمل مئونة العيش فى يأس وتكفير عن ذنب من ؟!! ذنب أمها .

حتى كانت ليلة صيف وأمها راقدة على السطوح وهى فى ساحة الدار تقوم ببعض الأعمال .

سمعت نقرة على الباب ذكرتها ماضيا بعيدا . ماضيا لشاب أحبته لكل صفاته ثم اكتشفت فى الليلة المعهودة أنه مشغول بالتفتيش عن شىء خسيس فيها فلما لم يجده .. انصرف عنه !!

وأرهفت تحية سمعها . وعادت النقرة . وفتحت الباب فإذا به أمامها .. هو بعينه .

كانت النار تتأجج فى الكانون ودخل الرجل .. ووقف معها فى النور وسأل بصوت عال عن أمها فردت بأنها فوق .

لكنه عاد فاحتضنها بقوة ثم تركها وصعد إلى أمها . وبعدها تم الزواج .. وكانا فى سن واحدة .. فى الثالثة والثلاثين .

\*\*\*

وأغمضت الأم عينيها وعادت تسترجع الماضي . شعرت بفرحة عابرة  
لآخر مرة في هذه الليلة . وهي تتصور بنتها في هذه الليلة في أحضان زوجها .  
ثم حملت في خشب السقف وتسلت الوحدة بكل سكونها ومعناها وعمقها  
إلى أعصابها . وخايلتها هي الأخرى صورة زوجها الكفيف البدين وكأنه  
جالس يقرأ القرآن وهو يتمايل في حركة بندولية .. ظلت تهددها كالطفل في  
الأرجوحة حتى استغرقت في النوم .



أما الخفير في الحطب فقد كان كلما تذكرها عاد فشتم كفه ليستنشق منها رائحة  
العطر . فأغمض عينيها واستسلم تحت غطاء الصوف في كن الحطب إلى أفكار  
متواردة .. رجال ونساء وفتيان وشبان .. وحوادث تكلمت عنها القرية علنا  
وسرا . وأخيرا تنهد هو الآخر .. فقد كان من الذين يدعون لتحية بألا يلحقها  
قدر أمها وذلك كلما رآهما معا على الطريق والأنظار تتبعهما من الخلف .





سَنَابِل

فتح عينيه مستيقظا من النوم فجأة كأن يدا قد هزته . تلفت فإذا الظلام  
خيم والليل ساكن لا قمر فيه . والرطوبة ورائحة القش تملأ أنفه وهو مستلق  
على ظهره تحت غطاء من الصوف . ونقيق الضفادع متخاذل يغالب النوم ..  
كل شيء يستريح .

تمطى تحت غطاءه فسمع طقطقة عظامه .. أحس بالراحة .. كان نومه  
عميقا بدليل ما يحسه الآن .. وكان طويلا بدليل أن القمر قد غاب . وحملق  
في النجوم فرأى بريقها المعدنى يغمز في صمت فتحرك في مرقده ثم جلس .  
كانت أجران القمح ممتدة حوله لا تكاد العين تدرك لها نهاية . قشها المكوم  
على هيئة مستطيلات أو مكعبات أو هياكل لا أشكال لها — تبدو في ظلمة  
الصيف مثل كثران من الرمل مختلفة الأحجام . والنورج بحديدتها الأسود في  
جمود .. آلات تطحن بالنهار وتجمد بالليل مثل حيوان شبع ونام . ليس في  
الجرن حركة قريبة منه . فأحس بظل من الأمان يخيم على كل شيء ، ظل لم  
يستطع له تعليلا . لعله كان منبثقا من داخله المليء بالراحة أو لسبب لم يقدر  
هو على الوصول إليه .

غير أنه نفى عن نفسه الغطاء وقام واقفا . أخذ يتلفت في كل اتجاه فملأ  
الصمت أذنيه . وتذكر حركة النهار تحت وهج الشمس وهم يدرسون القمح  
.. أزيز النوارج والكرايج في يد الفلاحين يلفحون بها مؤخرات الحيوانات  
... تلك التي تلف في دائرة مقفلة .. وتذكر ابنه الذى نام على الصرير الرتيب  
فهوى وكاد يموت .. جرح فقط ولطف به الله . ولولا أدركه عمه .. أخوه  
فاعترض سبيل الماشية لما وقف النورج .

وألفى نفسه ينظر إلى السماء كأنه يحس من ورائها وجود الله ذلك الذى

لطف به فنجاله ابنه . وخفق قلبه لتلك المخاطرة ودخل أخوه نطاق ذكرياته .  
سأل نفسه عنه كأنه لم يره منذ زمن طويل فذكر أنه منذ ليلتين في البندر  
هناك على مقربة من زوجته المريضة في المستشفى الأميري . وقبل أن يسافر  
أوصاه أن يولى قمحه شيئا من الحراسة .. خصوصا بالليل .

ولم يكن أحد يعلم أن شقيقه « محروس » غائب عن القرية كطبيعة القرويين  
في إخفاء تنقلاتهم بعضهم عن بعض . وها هو ذا الآن غائب في البندر ولا أحد  
يخس بل ربما ظنوا أنه كامن في مكان ما بين أكداش قمحه بين القش وأن حركة  
واحدة من يد غريبة لا بد أن توقظه من النوم .

ونحو جرن الشقيق « محروس » مشى شقيقه « كامل » بخطا خفيفة يجوس  
خلال المكان . تخطى ثلاثة أجران ثم وقف عند الرابع . ولما داس على قش القمح  
لم يصدر منه صوت ، ذلك لأن رطوبة الليل حولته إلى شيء طرى ليس له  
خشخشة ، وفي صمت وقف ينظر إلى المحصول المكس بغير نظام في عدة  
أماكن وبظام في أماكن أخرى .. ثم .. بطريقة تلقائية جلس على القمح ..  
وتناول إحدى السنابل وفركها بين كفيه ثم نفخ ما حولها من برج فبقى الحب  
.. أخذ يتسلى . أخذ يعد السنبلة وبعد ذلك اعتراه تفكير . تفكير عميق .  
تفكير العامل الذي يراقب نتيجة أعمال غيره ويحاول أن يوازن بينها وبين أعمال  
نفسه وأطرق قليلا وتهد . أحس أن الفرق بين محصوله ومحصول أخيه لا بد أن  
يكون كبيرا .. وتناهى إليه نقيق الضفادع في شيء من النشاط كأنه يستحنه على  
القيام . عند ذلك تحرك ووقف ثم تحرك من جديد ودار حول الجرن وتنحج .  
كل شيء على مايرام . فأعاد خطاه راجعا إلى حيث كان .. إلى جرنه . وعدل  
من وضع غطاءه الصوفي الذي كان قد لفه على حزمة من القمح ليوهم أن أحدا  
يرقد تحته مخافة أن يمر لإنسان ما مصادفة فيرى الغطاء بلا حارس .. ثم جلس كامل  
على قمحه هو . وتهد . كان لا يزال يذكر عدد الحبات التي وجدها في إحدى  
سنابل أخيه . ومد يده بحركة تلقائية وأخذ سنبلة من قمحه وفركها ثم .. نفخ

ما حولها من برج وبقي الحب .. وأخذ يعد في الظلام .. « بسم الله الرحمن الرحيم .. واحد .. اثنين .. ثلاثة .. و .. » .  
ولما انتهى من العد أحس أن الفرق كبير فأمسك بسنبلة أخرى . فركها بين كفيه ونفخ البرج حتى بقي الحب وعاد يعد .. لكن .. كانت النتيجة موحدة . لم يختلف عدد حبات الأولى عن الثانية فتأكد أن الفرق بين محصوله ومحصول أخيه سيكون كبيرا .

أحس بشيء من الضيق لم يستطع تعليله ثم .. سريعا وبحركة عقلية بدائية استخلص أن ذلك راجع للاجتهاد وأنه كذلك راجع للرزق .. ما كتبه الله مع العمل في صفحة واحدة .. صفحة الأرزاق الشخصية .

وتمدد تحت غطائه وأخذ يحملق إلى النجوم . وبطريقة عادية تدل على السهر والفراغ أخذ يعد .. يعد النجوم .. وعندما وصل إلى المائة ألفى نفسه يضحك حتى كاد يسمع صوت نفسه . وفجأة وكأنا أوحى إليه بشيء قام واقفا . ودفن الغطاء الصوفي تحت أكداش القمح وأخذ يعمل عملية غريبة لم ينته منها إلا وجسمه يتصبب عرقا وإلا عندما سمع المؤذن على حائط مسجد يهتف لقدوم الفجر .

عندئذ كف عن عمله . جلس يمسح عرقه وينفض عن جسمه ما علق به من تراب وقش . ثم ذهب إلى التربة وجلس يغسل هذا عنه . وبين وهلة ووهلة كان يشعر بمعان متضاربة .. يشعر أنه ما فعل إلا الصواب وأحيانا كان يشعر أنه فعل الخطأ كله . لكنه على كل حال كان قد انتهى . ظل ساعة كاملة ينقل القمح من جرن لجرن مستجيبا لنداء في نفسه منتهزا غيبة أخيه ونوم الناس وبعد الأجران عن المساكن .

وعندما خلا بنفسه حسب المرات بالتقريب فألقى نفسه قد نقل مائة حمل على كتفه هو من جرن إلى جرن حتى تعب ظهره .





لكنه كان قلق البال من أجل محصوله في الجرن

وفي المساء التالى كان مريضاً . لا يدري لماذا ارتفعت حرارته . ثم قالوا له أن إحدى كليتيه ملتهبة وعليه أن يستريح فى الدار .  
كان أخوه قد عاد من البندر وقد تم براء زوجته .. نعم . عاد سعيداً ولكنه قلق البال لأجل محصوله فى الجرن . ولم يكن يدري مدى الحراسة التى بذلها له أخوه . على كل حال كان معتقداً أن حارساً واحداً على شىء واحد أقوى من حارس على شىئين لأنه كان فى رأيه لا يزيد على نصف حارس .  
وعندما نزل إلى القرية تناهى إليه خبر مرض أخيه . ذهب إليه وعاده وسهر عنده حتى اطمأن عليه . وعندما هم بالخروج من الحجرة العلوية الصيفية فى دار أخيه نظر إليه شقيقه نظرة ذات معنى ضحك لها « محروس » ضحكة حية متدفقة قائلاً له : « دابن تدان ياما أقرب الأيام . يوم لك ويوم عليك . اطمئن يا كامل . كما حرس جرنى سأحرس جرنك » . ونزل وودعه أخوه بنظرة ذات معنى فلقد ذكر عدد مرات القمح التى حملها من جرن إلى جرن . كانت أكثر من مائة كل مرة منها هى نهاية ما يحتمله رجل .. وقال فى نفسه وهو يعتدل على ظهره وعليه الغطاء الصوفى الذى كان معه فى الجرن : « ربما كان مجموع ما نقلته من القمح يساوى حمل جمل .. حمل جمل .. وتنهد . وشعر أن أجفانه تثقل . كانت الآلام قد بدأت تخف عنه فأحس وطأة النوم . ورأى نفسه وهو بين اليقظة والنوم يقوم من جديد بتلك الحركة السريعة المدوخة . حركة نقل القمح من جرن لجرن . حتى أسلمه هذا الدوار إلى نوم عميق القرار .



فى هذه اللحظات التى هبط فيها كامل إلى أعماق النوم كان أخوه قد نفذ الغطاء عنه . نظر إلى النجوم المتلائة فرأى نجماً يهوى .. عرف أن الفجر يحث

خطاه وأن الليل أوشك أن يولى . وكان الجو رطباً أيضاً وحتى الضفادع في الترع سكن نقيقها . سكون تسمع فيه خفقة النفس ونجوى القلب . وداس على القش فألفاه رطباً . لا حس ولا خشخشة . ودس غطاءه في قمحه وتحرك نحو الجرن الآخر . رأى جرن أخيه وقد نقش منه جزء وقف عليه النورج في جلال وجزء آخر قد رص بنظام وبحركة غير إرادية جلس على جرن أخيه . وبطبيعة الفلاح مد يده فأخذ سنبله . فركها بين كفيه .. نفخ البرج فبقى الحب .. أخذ يعد : « واحد .. اثنين .. ثلاثة .. و .. » تهد . شعر أن الفرق بين المحصولين عظيم . بين محصوله ومحصول أخيه .. نعم .. لكنه أعاد الكرة فأمسك سنبله أخرى وفعل نفس الشيء . فركها بين كفيه وعد الحب . « يا إلهي .. ذلك حظ أو عمل ؟ ! » هكذا قال في نفسه . لكنه أيضاً بحركة عقلية بدائية استخلص أن ذلك راجع للاجتهاد وأنه كذلك راجع للرزق .. ما كتبه الله مع العمل في صفحة واحدة صفحة الأرزاق الشخصية .

وعاد إلى جرنه وتمدد تحت الغطاء وأخذ يحملق في النجوم بطريقة تدل على الفراغ . وبطريقة مألوفة عند الساهرين في الفضاء أخذ يعد .. يعد النجوم .. وعندما وصل إلى المائة ألفى نفسه يضحك . نفس الذى حدث لأخيه . وفجأة وكأما أوحى إليه بشيء قام واقفاً . ودفن الغطاء الصوفى تحت أكداس القمح مرة أخرى وأخذ يعمل عملية لم ينته منها إلا وجسمه يتصبب عرقاً والمؤذن يهتف لقدوم الفجر على حائط المسجد .

كان يفكر وهو جالس إلى ماء التربة يغسل عن جسمه كل هذا .. هل فعل الصواب ؟ وأحياناً كان يشعر أنه فعل الخطأ . لكنه على كل حال كان انتهى . ظل ساعة ينقل القمح من جرن لجرن . نقل حمل جميل .. نعم حمل جميل حتى تعب ظهره .

وكعادة الفلاحين أخذ كل يسأل جاره عن كمية محصوله . وبدأت السنة في مجموعها أقل من العادية في محصول القمح . فلم يكن في الجرن محصول أعلى من ستة أراذب للفدان الواحد .

ولم يكن الشقيقان قد انتهيا من درس قمحهما . وعندما تم الدرس وبدأت التذرية كان كل منهما جالسا وراء الرجل الذى يؤدى هذه العملية وهو مطرق يفكر في عمق عما عسى أن تكون النتيجة .

وفرغ « محروس » أولا فقصده نحو أخيه يحمل إليه الخبر :

— تصور يا أخى .. قمحى يعطى في هذه السنة العرجاء ثمانية أراذب للفدان ؟!

قام أخوه وقبله .. وظل صامتا كأنه يعرف السر . وبعد يوم واحد فرغ الأخ الآخر وعرف المحصول فقصده إلى شقيقه بدوره قائلا له :

— تتصور يا أخى .. قمحى يعطى أيضا في هذه السنة العرجاء ثمانية أراذب للفدان .

فقام أخوه وقبله وظل صامتا كأنه يعرف السر .



أما حقيقة السر فالله وحده هو الذى دبرها . فقد أشفق الأخ الحاضر على أخيه الغائب في البندر عندما خمن أن محصوله سيكون رديئا وهو صاحب أولاد وأن محصول حقله هو سيكون أو فى فنقل إلى جرن أخيه حمل جمل ... وعندما مرض الثانى في الليلة الثانية فعل أخوه نفس الشئء عندما خمن أن محصول أخيه سيكون ضعيفا وهو صاحب أولاد وأن محصوله أو فى فنقل

كذلك إلى جرن أخيه حمل جمل .

وهكذا لم يعد في الموقف شيء يتنافى مع علم الحساب فقد جنى كل من الشقيقين ثمرة عمله فقط . غير أن شيئا واحدا مهما ظلل على محصول كل منهما ... ذلك المحصول الذى حرسه الحب فملائته البركة حتى فاق كل تقدير .





السَّاهِرُونَ

أحس أن الليل طويل . فسأل نفسه وهو يتجه إلى النافذة ليلقى منها نظرة على الظلام : « هل خلق الليل لينام فيه الناس ؟ » ثم ما لبث أن أجاب عن السؤال : « لا ليس ضروريا فهناك أعمال لم يخلقها الله إلا لليل » وعندئذ سمع نخبحة الشرطي الموكل بالحراسة . رآه في الشارع المظلم تحت بصره يتنقل مثل طيف ... بندقيته على كتفه وحلته صفراء .

إن هذا البندر ... نير ينام مبكرا لكنه هو لم ينام حتى الآن .. ويحس أن الليل طويل .. طويل جدا .

وعلى مرمى البصر عدة نخلات متلاحقة في الطول تقف في ظلمة الخريف ونداوته رمزا لانتفاء موسم الفاكهة . وبدأ يشعر بالانقباض . إنه لا يدرى كيف يبدد الوقت ، وتمشى يقطع الشقة الصغيرة في كل أرجائها ويتذكر ما كان يحفظه من حكمة عن الوقت « الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك » وعندئذ تبسم . فهو « محضر » في محكمة البندر ، عازب غريب يسكن هذه الشقة . وكان قبل ذلك يقطع الوقت كل ليلة مع اثنين من أصدقائه لكنهم مع ذلك شعروا بأن الوقت « قطعهم » .. الثاني مدرس والثالث كاتب في محل تجارى . وعندما يدخل الليل يلتقون بعد العشاء في مسكن الكاتب وعلى كواهلهم أحمال معنوية لا يشعر بها سواهم . كل منهم ينظر إلى حائط المسكن وكأنه جبل يزحف عليه يريد أن يصصره تحته فيلبس ملابسه ويجرى . ويلتقون في شقة الكاتب .. إنه عازب مثلهم . ثلاثة من الغرباء . وكان المحضر أكبرهم سنا وأميلهم إلى السيطرة وهو الذى يوحى إلى المجموعة وينظمها .. وقد ظلوا على ذلك ثلاث سنوات حتى أقسم الثلاثة في الليلة الماضية . وقف المحضر يخاطب نفسه والليل أمامه ممدود على الكائنات بلا نجوم





على كواهلهم أحمال معنوية لا يشعرونها سواهم

ولا قمر والسماء مطموسة بالسحاب .

« لو أنني تزوجت لربما حدث عن هذا الطريق .. ربما كنت لا أشعر بالملل . لكن . فيم كنت أقضى الليل ؟ لقد فررت من أبى وأخواتى لأن أبى قضى ليلاليه فيما فررت أنا منه . قضاها هناك فى غرفة بلا نوافذ مع زوجة سقيمة .. وأنجب عددا من الناس تحير فى أمرهم . ثم استغاث بى كواحد منهم . لكننى لم أستطع أن أفعل شيئا . « وتبسم أسفا » كان يريد منى أن أطفىء حريقه بدموعى .. كنت سأفقد عينى ثم تأكله النار ، من أجل ذلك فررت .. ثم بدأت أحس بالوحدة وكم سخر منى زميلى محسن ذلك الذى ملأ دنياه بالهوايات .. آه .. لكننى لم أكن أصدق أن هذا نافع .. كان ينسج سلالا من القش ويطرز مثل النساء ويرسم لوحات مثل فنان وكنت جاعله هدفا لسخريتى .. ثم تزوج — أما أنا فقد ألت إلى هذه الحال .. آه .. إننى لا أستطيع النوم .. شئ فى كفى ورأسى ودمى يتحرك ويحركنى وإن كنت ثابتا .. كعجلة تدور على الفاضى .. إننى أتعذب » .

وأشعل سيجارة ووقف يدخنها وينفث فى وجه الليل دخان اللفافة مثل تأنيب أو احتجاج أو تنفيس عما فى الصدر .

وفى الشقة الثانية فى جنوب المدينة كان المدرس ساهرا فى النافذة كذلك . الحارة ضيقة ومسدودة . والليل ساكن . وهناك فانوس على باب الحارة يلقي شعاعا متعثرا ما يكاد يصل إلى منتصفها حتى يذوب وصوت دجاج يقرقر فى هدوء واستعذاب للنوم فى سطح منخفض فى بيت جاره ، إنه ضئيل ضعيف الصحة يوحي مظهره بأنه فى الثلاثين وإن كان فى الأربعين من عمره ومنذ ثلاث سنوات وهو فى هذه المدينة الصغيرة . تعرف بالمحضر والكاتب التجارى وربطت بينهم تلك العلاقات المرة .. يقف فى نافذته الآن ويسمع بكاء طفل صغير أمه لم تحف إليه مع أنه يبكى منذ ربع ساعة .

وطاحت به الخيالات وغمره ما يشبه الغيوبة . فهو حتى الآن لم يتزوج . ولم يدخر شيئاً من مرتبة .. ولولا ذلك الكاتب التجارى لانكشف حاله فى الربع الأول من الشهر . والشباب فى سبيله إلى الذبول « فلماذا آل إلى هذه الحال » .

سأل نفسه هذا السؤال وسالت دمعة على خده . إنه لم يكذب يكسب من الدنيا شيئاً . عاش نهاره صارخاً فى الفصل ثم يعيش الليل هكذا .. يقابله بخوف شديد ويريد أن يقطعه ولم يستطع أبداً أن يقطعه وحده .. كان لابد من زملاء له فى الأزمة .. يحملون نفس المأساة .. وأبوه وأمه فى غنى عنه لكنه فكر فى مستوى معيشة أعظم . إنه يحب السيارات فلما اقتنى منها واحدة أكلت قوته ... وحول الخبز إلى بنزين .. ولم يكن يدرى أين يذهب بها ولذلك فرضت هى عليه حركتها بدل أن يفرض هو عليها حركته . فكان يذهب إلى مدينة طنطا أو دمنهور ليقضى مع صديقه سهرة فى السينما ، ثم تركها فى الجراج أخيراً ثم لحقها الصدا .. ثم باعها بأبخس الأثمان .. ثم ضاع ثمنها .

ثم تذكر زميله محمود المدرس ... ذلك الذى يقضى الليل فى القراءة وينفق من مدخراته على شراء الكتب .. لقد ظهرت له مقالة فى إحدى المجلات وطار بها وطار به التلاميذ وشعر هو ومن حوله أنه مخلوق أعيد خلقه . ثم رقى ونقل .. ثم لمع اسمه .. وفى نهر الاجتماعيات رأى خبر زفافه إلى باحثة اجتماعية .. لقد عرف طريق الحياة ... وعن طريق العزلة عرف أبواب الفكر وطريق المجد .. أما هو ؟

وأحس أن دمعة تترقرق فى عينيه .. وساد صمت .. كفى الدجاج عن القرقرة وكفى الطفل عن البكاء .. وسمع من وراء تلك النافذة

ضحكة امرأة فازداد الليل ظلاما في عينيه لأن علامات الأنس قد تخلق الوحشة لمن حرم من الأنس أيام شبابه .

ودخل وأقفل النافذة واستلقى في الفراش يفكر في مادة الحصة الأولى وذلك التلميذ النبيه الذى يحاول كشف إهماله .. والهرب المكشوف الذى يهره من الأسئلة .. وتنهذ .. وتذكر زميله وسأل نفسه : ترى ماذا يفعل عزيز المحضر وعنده الكاتب التجارى الآن ؟! .. « ترى ماذا يفعلان ؟! » .

أما الكاتب التجارى فقد كان في هذه الليلة مثل ذئب حبيس في قفص . شقته المطلة على الميدان الصغير مليئة بالبق .. لم تبيض حيطانها منذ سكنها . ولم تنظف كما ينبغي .

يطل من الشباك على الميدان .. ويستعيد الحركة التى يموج بها أثناء النهار . وتملأ أنفه رائحة الجبن والزيتون والحلوى الطحينية وكل ما يفوح عادة من دكان بقالة كبير . يقع على مرمى البصر منه .. بابه الصاج مقفل وعلى مقربة منه يمر شرطى متمهل ..

إنه في الثلاثين من عمره ربعة سليم .. كفه بيضاء بضة مثل كف فتاة ومعصمه ملء ملفوف . وله شارب أنيق يحير الحلاق في تنسيقه .. لكنه طويل اليد .. وكان من الممكن لو حسب ما أخذه من الدكان اختلاسا فوق مرتبه أن يشتري البيت الذى يسكن فيه الآن أو يتزوج على الأقل .. لا يدرى أين يذهب المال .. وكل ما عمله من فضل رجا به وجه الله !! أنه أقرض صديقه قرضا حسنا عدة مرات ولا يزيد مجموع ما أخذه منه عن خمسين جنيتها لم يسترد منها سوى بضعة جننيات والباقي تحت رحمة الظروف التى يعيشها الثلاثة .

ليل وفكرة وسهر ..

جمعت الثلاثة على هم واحد .. كانوا عبيدا له صنعوا قيدهم بأيديهم ثم

وضعوه فى أقدامهم ثم أقفلوه ورموا بالمفتاح .. ليس هناك مفر .. كل واحد منهم يجب صاحبيه جدا ويكره صاحبيه جدا .. كالكبدة المريضة مصدر ألم وسهاد وأحلام سلطانها الكابوس وليس هناك إمكان لاستئصالها .. عذاب !! وكل منهم يسأل نفسه « ترى ماذا يفعل الآخر ؟! » والليل بطيء وكانت شقة الكاتب التجارى هى المقر المختار لاجتماعهم . كانوا يطلون على الميدان الأخرس ويتساءلون : « أهكذا تموت الأماكن كما يموت الناس ؟! » ذلك الذى تسمع فيه فى النهار مئات الهاتفات من سائقى سيارات الأجرة والباعة والسماسة .

كان هذا الميدان صورة ليل المدينة ، ليس فى الخارج حياة . كلها خلف النوافذ والأبواب . ولمدد قصيرة جدا من الليل ثم تنطفئ الأنوار ويتحول كل حى وراء كل باب ونافذة إلى جثة تنتظر بعث الصباح . أما هؤلاء الشبان فقد كان فيهم طاقة حاربت الليل وحاربها واهتدوا « وكأنا بالفطرة » إلى الطريقة التى يبددون بها الوقت . وكان شأنهم معها أول الأمر مزاحا ثم استلذوا المزاح ثم أصبح المزاح حقيقة كما هو مألوف بين من يتبادلون النكت ثم يتشائمون .

ثم تحولت الحقيقة — التى هى فى الأصل مزاح — إلى عبودية مشوبة بالقلق والكمد والتلاوم كل منهم يلوم الآخر ويتهمة بأنه السبب . ومع ذلك لكى يتم العمل فلا بد أن تكمل الدائرة وينسرق الليل .. ينسحب فلا يحسون به مثل لص فى ملابس سوداء يسلب أمنهم ووقتهم ولباب شخصيتهم .. ويمضى . وفى الصباح يخرج كل واحد منهم وهو يفكر فى حوادث الليلة الماضية بينه وبين زميله . وأصداءها عادة لا تفارق آذانهم .

والمسرة التى قد تكون فى نفس أحدهم تحمل فى طياتها سرعة الزوال فهو لذلك يقطع نهاره فى انتظار سواد الليل ليرى ما إذا كان هذا وهما أو حقيقة .

أما الحسرة التي قد تكون في نفس أحدهم فإنها تحمل في طياتها معنى الأصالة ولذلك فإن صاحبها يقطع نهاره في انتظار سواد الليل ليرى ما إذا كان هذا وهما أو حقيقة .

ناس يسابقون ظلالهم في مشوار لا ينتهى . حل الوهم فيه محل العقيدة بأنهم سينفصلون يوما عن ظلالهم ويسبقونها .  
لذلك فإن الليل على الثلاثة طال بعد أن قرروا ألا يلتقوا حسما لهذه الدوامه التي هى مسابقة الظل .

لكن ما لبث الليل أن انتصف وأحس « المحضر » أن البقية الباقية منه نصف جبل من الجرانيت لا يستطيع حمله وحده فنظر إلى النخيل نظرة أخيرة ونزل إلى الشارع .

كان يعدو هو في جلبابه وعوده يترنخ وقصد توا إلى شقة المدرس .  
كانت الحارة مليئة بروائح جوافه لعلها منبعثة من مخزن فاكهة في بيت يشبه « الربع » ومع هذه الرائحة صمت وظلام وأحجار تعثر فيها . ودخل الباب .  
وكان السلم الضيق الذى كأنه منحوت في الجدار في مواجهته تماما .. فصعد .. صعد حتى طرق الباب .. ولم يرد أحد . وقف يتعجب .. كيف يستطيع أن ينام الآن والساعة لم تتجاوز الثانية عشرة والربع !! .. « كأنه خلى البال أو في أحضان عروس » وتهد وعاد يدق الباب بقبضة قوية ثم أخرج « مصباح بطارية » من الذى يحمل عادة في الجيب وسلط نوره على الباب فإذا المفتاح في الخارج .. في الباب من الخارج .. فقهقه قائلا في نفسه « نسيه ونام » .. وفتح ودخل فإذا السكن ليس فيه إلا السكون . وإذا بعدد من الأوراق الممزقة تملأ حجرة النوم داس عليها « المحضر » بشبشه وكأنه يريد أن يقتل فيها شيئا حيا .

أقفل الباب — باب صديقه المدرس — ووضع المفتاح في جيبيه وهبط

السلم وهو غريق فى الأسى . ثم أخذ سمته إلى بيت الزميل الثالث .. الكاتب التجارى .. هناك حيث الميدان الأخرس .. حيث صورة حية للمدينة الميتة .. وصعد السلم وما كاد يقف بالباب حتى سمع جدالا وضحكا . وطرق الباب فإذا صوت أحدهم يقول : « إنه هو بلا شك » . عرفوه وقاموا وفتحوا له .

ودخل يتفحص كل شىء ثم وقف أمامهما صامتا كتمثال ثم نطق بعد قليل قائلا للمدرس :

— أين أوراقك ؟! . « وفهقه » رأيتها هناك .. لقد مزقتها أنت ودستها أنا .. لكن السر السام الكامن فيها حركتنا نحن الثلاثة .. لم يذق أحدنا النوم .. وعندما سحب الكاتب التجارى من تحت وسادة فراشه « أوراق اللعب » .. وأخذ « يفنطها » .. بطريقة ماهرة ساخرة شعر الاثنان خلالها كأن كلمة إغراء تصل إلى آذانهم من إحدى بنات الليل . وعندئذ هجم المحضر على صاحب الشقة وأخذ الأوراق منه ومزقها ورمى بها وداسها كما فعل فى شقة المدرس كأنه يريد أن يقتل فيها شيئا حيا . لكنه فوجئ بأن هجم عليه الكاتب التجارى وأمسك بخناقه وهزه مهددا متوعدا . لكنه لضخامة جسمه صمد له . وهو يلهث ويغلى .

ثم جلس الثلاثة صامتين .. يد كل منهم على جبينه كمن يعانى صداعا مزمنًا .. يتذكر صميم ماله الذى أكله القمار والوقت والفكر .. ويتذكر الزملاء الذين هربوا من الوحدة والخاوف بالهوايات .. مثل ذلك الرجل الذى كان يطرز مثل النساء ويرسم مثل فنان .

ومثل ذلك الذى انتفع بالعزلة وقرأ .. وأخيرا أصبح شيئا . قال المحضر : اسمعوا لى : أحسن ما يمكن قوله هو أن يفارق بعضنا بعضا . قال المدرس : سأطلب نقلى .

وقال المحضر : وأنا كذلك .

ورد الكاتب التجارى قائلا : أما أنا فغير ممكن بالنسبة لى أن أنتقل ..  
ارحلوا أنتم واتركونى .. ولا أريد ما عليكم من ديون .. فقط .. ليشتري كل  
منكما بدلة .. أو حذاء .. أما أنا فبعد رحيلكم .. ممكن أن أستريح .





تعاطف

كنت ساهرا أنتظر دقة جرس الباب . كل شيء في كان متحفزا مستغزا .  
ولأول مرة بدأت أرى شعورى بوضوح . صعب جدا أن نعرف نفوسنا .  
خييل إلى أن جرس الباب يرن ثم تبين لى أن هذا كله وهم .. إنها لم تعد حتى  
الآن والساعة تدلف إلى التاسعة مساء والدنيا شتاء .. آه يا سميرة .. الآن رأيت  
ما فى نفسى . استطعت أن أنظر إلى قاع شعورى وأرى ماذا هناك . هل كنت  
وهما فى حياتى ١٩ أرجو أن أكون مخطئا ..

ليس فى البيت خادمة . ليس هناك إلا أنا وسميرة التى لم تعد حتى الآن .  
قمت وأشعلت البوتاجاز وصنعت لنفسى فنجالا من الشاى وأخذت قرصا  
من الأسبرين .. ومضى على ذلك وقت لكننى لا أزال أحس بالصداع . ثم  
تبين لى لوفرة ضيقى أننى نسيت الأسبرين على المنضدة وشربت الشاى وحده  
.. وحملت فى البيجاما فإذا بى قد لبستها بالمقلوب .

هناك ساعة تدق معلنة التاسعة مساء وهى لم تعد من الخارج .. عندما تعود  
سأعمل أشياء كريهة .. سأجرها من شعرها كما كان يفعل آباؤنا قديما وأنهال  
عليها ضربا . لكن .. هل يليق هذا بالمتعلمين ١٩ .. غير أن اضطراب العصب  
ليس له علاقة بالثقافة . إن علماء النفس يصابون بالقلق وربما الجنون ..  
وطبيب القلب مات بالقلب . أنا أشعر الآن أننى رجل فقط .. رجل لا غير  
.. رجل بشارب .. لا لأننى أحمل ليسانس الحقوق . وهى .. امرأة .. مجرد  
حواء .. بصرف النظر عن أنها تحمل ليسانس الحقوق مثلى .. مثلى ١٩!

إن سميرة زوجتى . زوجتى منذ عام واحد رأيتها صبيحة هذا اليوم تدفع  
ضريبة الأمومة للمرة الأولى حين استيقظت على صوت قىء متشنج فوجدتها  
نصف منهارة فى الحمام .

كانت قد نامت متأخرة لأن أعباء وظيفتها أجبرتها على السهر على بعض الدوسيات لتجهز ما هو ضرورى منها لليوم التالى . أما أنا فقد نمت مبكرا رخيما مرتاحا لأن أعمال وظيفتى فى المستخدمين قليلة للغاية لا تكاد تأخذ ربع ساعة اليوم المكتبى ونمت واستيقظت ثم نمت واستيقظت وفى كل مرة كنت أتحسس مكانها فى الفراش فإذا به خال منها . كان هذا فى الليلة الماضية ... ثم جرفنى النوم كتيار الفيضان .

وعندما كانت هذه الساعة التى أسمع دقاتها الآن تعلن الثالثة صباحا دخلت سميرة تتسحب حتى لا تقلق منامى . وسمعتها ترقد وهى تتأوه . عظامها الناحلة تطقطق وأنفاسها متلاحقة .

لم أشأ أن أكلمها ساعتئذ . أحسست بشيء من العطف على أوصابها لأنها تعمل وتضوى وتذوى ويمتصها « الوحم » لكن ذلك ومض واختفى ليلى النوم فى دثار دافئ حتى قمت صباحا على قىء متشنج .

وها هى ذى لم تعد حتى الآن من الخارج والساعة تدق التاسعة ، وأشعر برغبة فى أن أرى منظرها وهى داخله . تحمل حقيبة مثل ساعى البريد كبيرة مليئة بالورق وتلهث من السلم الذى تصعده إلى مسكنها فى الدور الخامس . ما لى أقول عنها هذا .. هل تغيرت نحوها مشاعرى فلم أعد أحبها ؟! لكن .. كيف ؟!

لقد قضيت ستة أشهر وأنا أعانى الأرق . كان ذلك منذ ثلاث سنين ونحن فى سنة واحدة طلبة فى كلية الحقوق . أحبيتها .. من العيث أن تسألنى كيف أحبيتها فقد تبين لى أن مرآة الحب ليست عمياء بل مرآة الحب تعكس دائما وجه القمر . وعندما كانت تقىء اليوم على الحوض تذكرت ليالى سهري من أجلها . كم رأيت وجه الصباح من خلال النوافذ وكم ضاقت على ملابسى . لم أر فى تلك الأيام أنفها الأفطس ولا بشرتها الداكنة ولا شعرها الجعد . وقد

اشتبتك في عراك بعودى الطويل وجسمى الفارع مع طالب رماها بنكتة  
وهى في أحد الممرات حين همس بحماقة خلفها : « يا سلام على أنف  
كليوباترة !! » .



سألت نفسى ذات ليلة من ليالى السهر .. أيام زمان .. ماذا أحب فيها ؟  
فلم أحظ برد قاطع . قيل لى عن طريق الهواجس وأجوبة الأصدقاء وأدعياء  
علم النفس : إنها تكميل لك . فأنت جميل كرجل وهى غير جميلة .. وقيل  
لى : لعل اجتهداها فى بناء نفسها سحر قلبك لأنك تمشى فى طريق شبه ممهد  
بلا تعب .. وقيل لى : إنك محروم .. ولكن أقرب الإجابات إلى عقلى ..  
ودعك من قلبى .. هو أننى لم أوفق فى حب امرأة جميلة أبدا .. فضلا على أن  
سميرة كانت ذات تفوق عقلى فى الدراسة تحسد عليه من كل الناس .. وقيل  
لى : إن ركوعك أمام جميلات الوجوه لم يجد عليك شيئا فلما ذهب دعائى  
هباء فى المعبد الوثنى وأطلقت أول دعوة فى هذا المعبد السماوى « أيام  
الحب !! » هطلت السماء بالرحمة ورأيت فى عينها — اللتين لا يبيض فيهما  
إلى حد شاذ — عطفانديا ينطق فى تلعثم .

كنا فى « بوفيه » الكلية . ولم يكن هناك سوانا .. وكان اليوم قبل وقفة  
عيد الأضحى .. لازلت أذكر .. وعندما صار حتما بحبى كان أمامها فنجال  
من « اليانسون » تملأ رائحته الجو حول منضدة . ومجلة على غلافها رأس  
« كليوباترة » .. كانت تحملى فى أنفها كأنما تجسدت أمامها الشتائم .  
ولكننى بعد أن أطلقت كلمة « الحب » كحمامة بيضاء رأيت سميرة وهى  
خارجة تكاد تطير بجناحين ... لا أنسى !!

آه .. مسكينة .. لقد تغيرت كثيرا فى هذه الأيام .. نقص وزنها واصفر

لونها الكأى كليمونة خضراء جفت على الشجرة . هيه .. أعمالها في  
التحقيقات كثيرة وثقيلة . اطلاع وتفكير وكتابة وسهر . وتحلم بمكان  
مرموق حالا .. ثم « وحم » كأى امرأة في حقول الذرة .. قء وتشنج .  
ولماذا لا أحبها الآن ؟! . إننى بانتظار دقة جرس الباب لأمسك بتلابيبها ..  
لكن .. هل تحتل هجومى ؟

إنها كبروة الصابون . بقايا جهد وإنهاك . وأنا .. وزنى فى ترايد ..  
ومظهرى أقل من عمرى الحقيقى .. آه .. آه ..  
جرس الباب يدق لقد جاءت ..

وقمت وفتحت الباب فإذا بسميرة جالسة على السلم تأخذ . أنفاسها  
بعسر .. أمامها الحقيبة المألوفة المليئة بالأوراق وكيس من الورق ملئ  
بالخضروات .

وأشارت إلى أن أحمل هذه الأشياء فلم أمد يدى . ظللت واقفا كتمثال  
فزادت دهشتها . وبإحساس حواء شعرت أننى غضبان فتحاملت وقامت  
وحملت فى كل يد شيئا ثم دخلت إلى حجرة المكتب فوضعت أوراقها ثم إلى  
المطبخ فوضعت الخضروات ثم عادت إلى فى حجرة النوم وأخذت تخلع ثيابها .  
— تأخرت عليك .. متأسفة . عيى أننى درست فى كلية الحقوق . ليتنى  
اخترت كلية أخرى .. كان عندنا تحقيق استدعى كل هذا التأخير .. لكن ..  
مالك لا ترد .. زعلان ؟! . سأصالحك .. لم تتعش يا حبيبى ؟! .. « فكرى »  
.. رد .. فالمرتاحون هم الذين يتحملون المتعبين وليس العكس ..

لم أرد . كانت قد خلعت « تايرها » الرمادى وبدأت تلبس قميص  
النوم . وكانت أصابع يدها ترتعش . ورأيتها تحرك خاتما فى يدها لترى مدى  
اتساعه وهل سيسقط ؟!

وجعلت أحلق فى وجهها بعدم مبالاة وأناية . إننى أعترف .. كنت

شاعرا بشكل فادح بأننى عقدت صفقة المغبون فى زواجى هذا .. لماذا؟! هل  
أنا الخاسر حقيقة!؟.

وتأوهت هى وأنت فى ألم . ثم نظرت إلى بعينها الغريبتين وقالت :  
— حالا سأعمل عشاء . إننى جائعة .. ومتعبة .. ساعة واحدة ونأكل  
لحما وخضروات معا .. و .. بعدها .. لن أسهر كثيرا فى المكتب يا « فكرى »  
.. إننى .. آ ..

عندئذ صرخت أنا :

— لا أريد أن آكل .. كلى أنت .. شبعت .. شبعت .. هل تفهمين معنى  
شبعت!؟.

لم أشعر أن صوتى كان مرتفعا إلا بعد أن كففت عن الكلام . فقد ساد  
صمت .. هدوء مستتب .. شامل . أشار إلى الضجيج الذى توقف . فغرت  
سميرة فمها ثم وضعت كفها على شفتى ..  
— فكرى .. أنت .. أنت .. تعبان .

هززت راسى لا هثا :

— .. أنت التعبانة .. لا أنا .. أنا .. ليس لى عمل متعب .. ولست أحمل  
مثلك غرورك الذى تسمينه الطموح .. من أين ستوفرين وقتا جديدا لهذا  
الغريم .. غريمى !!

هتفت كالللسوعة :

— غريم!؟

صرخت :

— نعم .. كل يوم تخلقين لى غريما ..

— آ .. آ ..

— نعم .. التحضير للدكتوراه غريم سيأكلك ويأكلنى . ليتنى أستطيع أن



رد .. فالمرتاحون هم الذين  
يتحملون المتعبين وليس العكس

أقتله .

عند ذلك انهارت على كرسى الزينة . أسندت رأسها إلى ظهره كما ينبغي  
طائر رأسه تحت جناحه . وكنت أرى صورتها فى المرأة . عود ضئيل منطو  
برزت عظام كتفيه وسمعت إجهاش بكائها . لكننى ظلت منتصبا كجلاد  
لا يعرف إلا العطش أسائل نفسى فى فترات « عدل » تولد وتموت بسرعة  
كالفقاقيع لماذا أكرهها ؟! ولم أصل إلى الجواب القاطع .

\*\*\*

قامت هى وفى عينها دموع . ذهبت إلى المطبخ . ولم ألبث وأنا فى مكانى أن  
شممت روائح السمن والبصل والتوابل . تصل ممزوجة برنين المعلقة على حافة  
حلل النحاس . وكنت فى هذه الفترات أشعر نحوها بحب أصفى .. أشعر أن  
سميرة التى هناك تعد الطعام امرأة لا عيب فيها .. وأحسست بدافع شديد إلى أن  
أذهب إليها .. وتسلفت ودخلت .. سمعت وقع خطواتى فلم تنظر إلى الخلف .  
ذلك دلال وانتظار أو غضب أو عتاب .. لكن ذلك هو ما حدث . وقبلتها فى  
عنقها . فجفلت .. ثم نظرت وعلى شفيتها الزاويتين ابتسامة متعبة حملت معانى  
كانت تريد ريشة رسام .. ابتسامة فيها الخوف والحب والتصميم والتعب . هى  
التقرير العصرى عن امرأة فى مثل موقفها .. واستدارت تكمل الطهى . قلت  
هامسا :

— سميرة .. لا تغضبى منى .

فلم ترد . قلت :

— إذن فأنت غاضبة .. وإذن فسا عقابك وأنا م بلا عشاء .

عادت فأدارت وجهها . رأيت عليه نفس الابتسامة . فأحسست بعودة  
الغضب فقلت مبتهلا :



— أرجوك .. لا تبسّمى هكذا ..  
فقلت بجد من تكتب تقريراً في تحقيق :  
— « فكرى » .. تأكد أننى لن أستطيع تغيير هذا الابتسامة إلا إذا حدث  
أحد أمرين ..  
— هما ؟!  
— أن أغير وضعى أو تغير أفكارك .. لا مفر ..



فتنهدت .. أحسست أن الكلام سليم . غير أننا أحياناً نصبو إلى الكلام غير  
السليم . ولا يشفى نفوسنا إلا الكلام المريض .  
فهزّزت رأسى . استعدت قولها وتفهمته . لكننى .. أحسست فجأة بالكره  
.. اختفت « الملعقة » وحل محلها « القلم » .. ذلك الذى تكتب به وتسهر  
لتعمل حتى قبيل الفجر ..  
وعبثاً حاولت ضبط أعصابى . وعبثاً حاولت أن أتفوق عليها فدخلت إلى  
مخدعى مصمماً ألا أتعشى ..



لم أدر كم من الوقت مر على . كنت أفكر فى الظلام . أستعيد كل ما فات .. قصة  
حبنا فى الكلية . هل كنت أريدها لتكمل محولى بتفوقها فلما صرنا جسماً واحداً  
برأسين .. يعنى زوجين .. لم أر إلا رأسها الذى خطف بصرى بوميض ذكائه  
فضايقنى . لكن .

ورحت فى النوم .. لم أحس ما حدث . كل ما هناك وفى وقت متأخر  
أحسست بها تتسلل إلى جنبى فى الفراش وخمنت أننا فى الثالثة صباحاً وأنها قد  
تعشت وعملت ثم أوت إلى مخدعها فاستشاط فى شعور حاد لا يمكن إلا أن يكون

عنادا فقمتم وأشعلت نور الحجر المتوهج ..  
كانت ذراعها على وجهها والتعب باد عليها ففتحت عينيها وسألت بهدوء  
فاتر :

— ماذا هناك ؟

— لا شيء .. غير أنى أريد أن أعرف قصدك .. ما معنى ما قلته فى المطبخ  
أن « تغيرى وضعك أو غير أفكارى » .

لم تغير وضعها فى الفراش . بدا على وجهها ملل أم أضناها صراخ طفل .  
لا شك أنها لا تزال تحبى .. ومع هذه المعانى التى تكلم بها وجهها رقت فى  
عينها لمحة تسامح .. مدت إلى ذراعها المتعبة وقالت بهالك :

— أرجوك .. من الممكن أن « نؤجل القضية » وقتا آخر .. تعال .. هل  
تحب أن أعتذر إلى من يبخل على بساعة نوم ؟

أطفأت النور وصدى جمعتها الأخيره يملاً أذنى ... وبقوة سحرية سرت إلى  
قلبي صعدت إلى الفراش فاترا . وفى ظلمة الحجر . ودفع الصوف  
وأفاسها التى لامست خدى أحسست أننى أعاقب فيها فشلى .. تخلفى سنة  
عنها .. نجاحى بدرجة عادية .. أما هى فكانت تحافظ على أشياء كثيرة أهمها  
فيما يبدو من معاملتها وعدم مجاراتى فى الخصومات أنها تريد أن تصل إلى قمة  
نجاحها ولعلها قد اكتشفت فى صمت — بينها وبين نفسها — أن سر تقديرى  
لها كان تفوقها العقلى . فهى تقاتل فى سبيل المحافظة عليه كما تقاتل المثلثات فى  
سبيل سلامة وجوههن من غزو تجاعيد السنين .

وضعت ذراعها على عنقى . تريثت قليلا فلم أبادلها نفس الحركة . كنت  
أفكر فى هذه اللحظة فى زميلى فى المكتب .. زميل أكبر منى سنا ودرجة يأتى  
كل يوم شاكيا من امرأته التى وضعت لابنها قطرة لم تعرف أنها صبغة يود  
والتي تركته يشرب لترا من الجاز وهى مشغولة بقتل الوقت عند جاريتها ..

تنهدت .. أحسست أنى أعادى فيها شيئا لم أحاول تحقيقه لنفسى . فربت  
على خدها فإذا بالندم قد أخذها منى تماما . وإذا بالساعة المعهودة تدق الثالثة ..  
ودق قلبى فى تعاطف .. حكمت بالعدل لأنها نائمة .. فلم تكن طرفا فى  
القضية . شعرت كأنتى أتكلم وحدى ..  
أترافع وأحكم .. أنا الخصم والحكم ..  
ثم رحت فى النوم ..

وفى الصباح الباكر استيقظت على نفس الصوت . ضريبة الأمومة ..  
القيء المتشنج .. فهبيت من فراشى وقمت إليها أسندها .  
ثم عادت تبتسم . عتاب وتعاطف ونهى عن الظلم .. بسمه تريد رساما ..  
تحمل ملاع امرأة حديثة . وفى طريقنا إلى الحجرة رأيت مائدة أمس .. كان  
عليها أطباق مغطاة .. رفعت أغطيها فإذا بالعشاء الذى أرادت أن أشار كها فيه  
— قد بات دون أن تمسسه يد ..  
هفوت إليه بسرعة . كانت فى المطبخ تريد أن تعد شيئا للفطور .. وشايا .  
فقلت :

— سميرة .. هل نمت بلا عشاء ؟  
نظرت إلى وقالت :  
— هل ترى ذلك على وجهى ؟  
— بل رأيته على المائدة .. أما وجهك .. آ ..  
ولم أكمل لأنه كان شاحبا جدا إلى حد أننى أحسست أننى ساهمت ليلة  
أمس مع متاعب العمل فى كل ما جرى لها ..  
أما اليوم فإننى سأحاول أن أفهمها من جديد .. أرجو أن أنجح ..



ظلال الليل

الأكوام المتباعدة المغطاة بقش الأرض يفصل بين الواحد منها والآخر مدى ليس بالقصير . على رقعة الحقل السوداء المحروثة تحت جناح ليل شهر « يناير » وليس في السماء قمر ولكن .. فيها سحب .

وعند سفح أحد هذه الأكوام رجل ساهر . خبت أمامه النار التي أشعلها فلم يبق منها إلا الرماد . ولم يبق معه سيجارة واحدة يدخنها تساعده على السهر والحراسة عند أكوام البطاطس . وحتى علبة الثقاب بللها ندى الليل . بعدما نسيها إلى جواره فلم يعد جنبها الأسود صالحا للإشعال بسهولة . وليس في الحقول صوت . لا ضفادع في الشتاء ولا ناي ولا أرغول . كان الريف داخل ضمن ما يسمى « البيات الشتوى » ولو كان هناك قمر ما غاب السحاب .. وكل شيء مستكن . سوى صوت واحد يصل إلى أذن هذا الرجل هو صوت ماء ينصب في خمول من حقل مرتفع في مصرف ماء منخفض ينصب إليه الرجل قليلا ثم يعود إلى أفكاره ..

تمنى أنه لم يزرعها هذا العام . إنه فلاح بسيط لكن حبه للتجربة دفعه إلى أن يزرع هذا الفدان . على حين أن أحدا من جيرانه لم يقدم على هذا . لكنه على كل حال ضامن لرأس المال . لكن سهره في نظر نفسه يساوى الدنيا وأرضها . لأنه مريض بالكلى وليلة واحدة من هذا النوع ربما أودت بحياته . فضلا عن شيء آخر هو أنه بانتظار ابنه .. لقد وعده بأنه سيتعشى ويعود ليأخذ مكانه في الحراسة ويرجع الأب إلى الدار لينام في الدفء لكن ... شيئا من ذلك لم يحدث . وها هو ذا الأب لا يزال في مكانه في ظل تلك الكومة الكبيرة المغطاة بالقش . والتي تبدو في الظلام لعينيه على هيئة تل من الرمل أو جمال رقدت بلا صوت .

وأخذ الأب يفكر : لماذا لم يعد ابنه ؟! ومن خلال ضيقه منه وقلقه على عودته وأيضا من خلال وخزات خفيفة لمست جنبه الأيسر — تصور أن ابنه غارق في سعادة أنسته والده .. والحقل .. والمحصول .. والحراسة .. ثم .. تصوره غارقا في النوم بعد ذلك في الحجرة الشتوية الخالية من النوافذ تلك التي يدفئ جوها بخار الحساء في أول الليل ثم بخار الماء البائت على الفرن ليكون تحت أذنه في الصباح .

وتنهذ الأب . وأرهف سمعه .. تمنى أن يصل إليه في الظلام البارد صوت ما . ولكن صوت الماء المنصب في المصرف كان قد سكن .. وهمد كل شيء . فشعر بتوتر السكون وضجة الصمت . فتنحج وخيل إليه أنه على وشك أن يغنى أو أن يقرأ دعاء . لكنه خجل وتحسس جنبه وهو ملفوف بغطاء من الصوف الثقيل وتحسس عصاه الغليظة ثم تحسس قلبه . لمس صدر نفسه لأنه شعر بالخوف . شعر رأسه كان يقف كأنما عاد طفلا يجسم كل ما سمع من حكايات الجن والذئاب والثعابين لكنه .. ليس الآن طفلا . إنه في الخمسين من عمره . وعلى كفه الخشنة نضجت وجمعت ملايين الثمرات . ليس البيات في الحقل بالنسبة إليه شيئا مخيفا . فقد قذف به والده في هذه المعمعة وهو صبي لم يتجاوز العاشرة .. سهر في حراسة الذرة ولم ينم من الخوف .. وها هو ذا الليلة كأنه نفس الطفل .. والدنيا ستكون ..

وألفى نفسه يغنى أغنية كان أبوه يرددها وهو جالس عند الساقية وبين كفيه حبل يفتله . وعندما سمع صوت نفسه دهش . إنه محشرج كتيب . وعلى كل حال فإن سماع المرء لصوت نفسه أمر يوجب الخوف كالتائه في الصحراء أو المتأدى ولا يجيب .

عندئذ قرر أن يقوم من مكانه . وكان قد فقد الأمل في عودة ابنه إليه فنهض . واتجه نحو الجنوب ليلقى نظرة على بقية المحصول . لكنه لم يسر بضع

خطوات حتى أحس بشيء غريب . أحس كأن أحدا يشد طرف البطانية التي تغطيه وهو سائر . لكن هذا الإحساس لم يستول عليه بل تخلص منه ببساطة حين استرد طرف غطاءه مما يشده . وكان همه كله أن يمر ويعود ليستغرق في النوم بعدما فقد الأمل في رجوع ابنه إليه .

واستمر في سيره . لكنه بعد برهة شعر بأن شيئا ما قد تشبث بطرف غطاءه كأن يكون وتدا مثبتا في الأرض فشبكت به أطراف الغطاء . حاول الرجل أن يخلصه فإذا به يتحرك وراءه .

عندئذ أخذته الدهشة . أحس كأن يد طفل تعابه فالتفت خلفه فإذا بأسطورة الحقل والحراسة تتكرر . حين وجد نفسه وحيدا في الخلاء أمام ذئب كان ممسكا بطرف غطاءه كأنه ينبه لوجوده في الحقل .

ولم يكن مع الرجل إلا هراوة غليظة . وحتى لو كان معه بندقية فإنه لا بد — كما هو معروف — أن يتردد ألف مرة في أن يطلق عليه النار

وللوهلة الأولى شعر بحاجة إلى الاستغاثة لكنه استكبر ولأنه كان على علم بأن صوته سيفنى في المزارع ولن يصل إلى أحد .. فالفلاحون أنفسهم في « البيات الشتوى » في الحجرات المغلقة التي لا يصل إليها صوت حتى ولو كان صادرا من ساحة الدار .

وتذكر ابنه وهو ينظر إلى عدوه المسترخى في قوة الزميلك ثم تذكر ما كان يحكيه الفلاحون عن أمثال هذه المواقع فحاول جاهدا أن يظهر عدم المبالاة لأنها أول خط من خطوط الدفاع أمام هذا الوحش .

واستمر يمشى لا ينظر وراءه . وكان الذئب بطبيعة الحال يتبعه خطوة بخطوة لكنه لا يسمع وقع أقدامه . بل كان يعرف ذلك بين الحين والحين من شدة للغطاء في مداعبة ثقيلة .

وعندما وصل إلى آخر الحقل فكر في مواصلة السير نحو الدار لكنه وجد

أن البقاء أقل مخاطرة فإن عودة ابنه التى لا تزال محتملة « على الأقل فى هذه اللحظة » منجاة له من الخطر ، ثم هناك وسائل للدفاع لا يمكن أن يستعملها وهو سائر لذلك ولى وجهه عائدا إلى حيث كان يمشى فى طمأنينة جعلت الذئب يقعى على مقربة من الطريق وكأنه يفكر فيما سيفعل .

واتجه الرجل إلى الشمال وتركه خلفه . كل خطوة بخطوها يتخيل بعدها أنه سيثب فجأة على كتفيه . لكن شيئا من هذا لم يحدث . وحتى طرف الغطاء لم يشد . حتى وصل الرجل إلى مرقد الأول . ولم يتفاعل بل جلس يستعيد كل وسائل الدفاع فهو يعلم تماما أن الذئب يستكشف الطريق قبل أن يعود إليه حتى إذا ما تأكد أنه خال من رائحة إنسان نزل إليه فى الحقل .

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل بدليل أن قطار البضاعة المعروف يمر على شريط السكة الحديد من بعيد ويقلق السكون كمن تداعى على نظام واحد . وأخذ الرجل يفتش عن مكان فى علبة الكبريت .. مكان جاف يشعل فيه عودا بعد أن كوم أمامه شيئا من الحطب .

وفجأة اشتعل العود وأضرمت النار وبدأ نورها المتحرك يقع ثم ينسحب تباعا فوق المراثيات ومن فوقها . وتهد الرجل ارتياحا ونظر خلفه فإذا الوقود كثير . وإلى أن ينفد سيحدث شئ ما فإما أن يجيء ابنه وإما أن يطلع الفجر وفى أحد الأمرين نجاة له .

لكنه نظر فإذا حمرة اللهب تقع على وجه الذئب . ولف الذئب ودار ثم عاد إليه وأقعى على مقربة منه . وكان يعرف أنه من المحال أن يفترس المتربص له ما دام ساكنا أمامه ويعرف أنه يخاف من النار والماء فقرر ألا يتحرك وألا يجعل النار تنخبو .

لكنه رأى فى تربصه شيئا مخيفا فأخذ يقذف بكرات من الطين يصنعها من





وجد نفسه وحيدا في الخلاء أمام ذئب كان  
ممسكا بطرف غطائه كأنه ينبه لوجوده في الحقل

الأرض الرطبة ويقطع من النار يمسكها بكفه فلا يحس بلهها . وكان الذئب يجيد عنها فلا تصيبه بمرونة وخفة تبعث الخوف في القلب أكثر وأكثر . وبعد عدة مرات أحس أن عضلاته بدأت تتحرك وهو مكانه وأحس كأن تيارا من الغضب سرى في جسم الوحش فقرر أن يكف قليلا عن رميه بالجمر . ولكي يبدو له أكثر طمأنينة ليقضى على خطته سحب رغيفا من الخبز وأخذ يقضم منه . يحرك النار بيد ويقضم الخبز بيد أخرى وعندئذ بدا على الذئب شيء من القلق كأنما شعر أن عدوه غير مبال به فدار حول نفسه عدة مرات وعاد واقفا ينظر إليه لكن الرجل رمى إليه بلقمة من الخبز مال إليها والتقمها ثم عاد ينظر إليه بعينين باردتين تقولان في وحشية صامته أن الوقت أماننا طويل .

وفكر الرجل : لو أنه رمى إليه بالرغيف لأكله ثم عاد إلى مناوشته وكأنه لم يفعل شيئا .

وعندئذ فقد الرجل صوابه . . لم يحس بالطريقة الغريبة التي يتحول بها الإنسان إلى وحش . لم يشعر بما حدث منه . كل ما أتيح له أن يشعر به أنه مد يده إلى طبق من الصاج كان في سفح الكومة . دسه تحت النار في سرعة ووثب به فجأة على وجه الذئب ورماه به .

ولم ير ما حدث فقد كان كل همه ألا تنطفىء النار ولو أمدّها بغطائه الصوفى . . ولو أمدّها بكل ما يغطي المحصول من قش ولو أن بعضه ندى لا يصلح للوقود وكان عليه أن يتحصن بها وكان في هذه اللحظة يميل مرة أخرى ليملاأ الطبق بنار جديدة لكنه فوجيء بأن سمع عواء شاكيا وهو يولى الأدبار . . عواء وحشى مجروح فأيقن أن النار قد مست عينيه إحداها أو كلاهما . فجرى وهو يعوى . . حتى دخل في منطقة الظلام فلم يستطع أن يحدد موقعه بعد أن انقطع عنه صوته .

لكنه فكر بحيلة الفلاح . . ربما يكون رابضاً في مكان قريب لكن الوقت مر ولم يعد .

وأحس كأنه يحلم لكنه فتح عينيه . رأى نورا خفيفا يبدد ظلمة الأفق . ونجوماً تتوارى . ونجوماً ظهرت لم تكن في السماء من قبل . أدرك أن الفجر قريب وأن النور على وشك أن يظهر وأنه قد نام وهو جالس وقتاً من الزمن . وسرت الطمأنينة في أوصاله عندما أحس هذا الإحساس وسمح لجسمه أن يستلقي على كومة البطاطس لكن عينه لم تغف فقد شعر بأن إنساناً ما على مقربة منه في الجانب الآخر من الكومة يحسر القش عن المحصول برفق لكي يسرق منه شيئاً .

ولم يشأ أن ينهض . . ظل راقدًا كما هو مستمتعاً بما يحدث قائلاً في نفسه : « إنه سيأخذ مقدار ما سيحمل ولا شك في ذلك .. فليس معه عربة ولا حمل .. وابتسم .. ومن أجل هذا جئت أصرع الذئب بالليل ؟ » . وظل ينصت حتى انقطع كل صوت فأخذ يحملق بما يتيح له نور النجوم فرأى رجلاً يحمل جوالاً صغيراً على كتفه وقد سار يعرج به . فعرف من يكون . . إنه سليمان الأعرج المهرج المشهور في القرية والذي يحبى لياليها وأفراحها بالضحك .

ولما رآه تذكر الذئب . . والصراع الذي قام بينه وبينه طوال الليلة الماضية وسأل نفسه عن السبب فسمع صوتاً في داخله يقول : « لو أن هذا الذئب استطاع في الليلة الماضية الحصول على زوج من الأرانب من إحدى الحظائر » .

لكنه أمسك عن التفكير فقد كان الأعرج لا يزال على مقربة منه . فقد عثر في شيء ما فسقط بالكيس وسمع سقطته على الأرض . . وحدثه نفسه أن ينهض ليأخذ بيده في رفق وسخرية ثم يزيد من حمله لكنه أحس بآلام شديدة

في جنبه تكاد تمنعه عن النهوض فعاد مستقرا حيث كان . وأخذ الأعرج يجمع ما سقط منه وعاد يواصل السير .

وكأنما كانت هاتان الحادثتان مخدرا قوى السطوة نام بعدهما الرجل نوما عميقا . فلم يشعر بنور الشمس ولا أضواء الناس في الحقول . بل كان مثل نائم في كهف . ينتقل من حلم إلى حلم وكل أحلامه تدور حول أفواه مفتوحة .. بعضها لسمك وبعضها لجمال يطعمها أصحابها وبعضها لطفل مدلل تطعمه أمه وبعضها لطفل آخر يبكى ويلتفت .  
وأخيرا .. الذئب يتربص على مقربة منه .

فاستيقظ مذعورا .. كان نور النهار وأشعة الشمس تفرش الدنيا ببساط من الذهب والدفء يشع في كل مكان وحببات الندى على قش الأرز تلمع في تألق ماسي يتنافى مع جفاف القش . والخضرة في الحقول زاهية لا تعترف بالأم أحد ..

وتذكر الأب كل حوادث الليلة الماضية ونهض وتمطى لكنه عندما تذكر أن ابنه لم يعد إليه حتى هذه الساعة بدأ قلبه يخفق في قلق أنساه حنقه عليه . وعند باب الدار لقيته زوجته ابنه وعلى وجهها اعتذار وانكسار . فقد كانت في الطريق إليه لتطلب منه العودة لأن ابنه بات صريع الملايا طوال الليلة الماضية .

— منذ متى ياسكينة ؟

— ذهب إليك أمس بعد العشاء . فقطع عليه الطريق ذئب فنزل إلى التربة لكي ينجو منه وعاد إلى الدار خوضا في الماء العميق حتى إذا وصل إلى القرية حرسه الكلاب ورجع الذئب لكنه بات محمومًا طول الليل .  
نظر إليها الأب نظرة طويلة لم تطرف معها عينه فظننت الشابة أن الأب يهتمها بما وسوست به نفسه في الليل . ثم ابتسم الأب فسأته سكينة :

— ماذا يا أئى ؟

فاجاب :

— لاشئ .. لم يكن هناك ما يستحق كل هذا العذاب .

\*\*\*

وفى هذه اللحظة مر عليهما سليمان الأعرج يبعثر النكت فى كل اتجاه وألقى التحية بمودة وشوق .

فرد الأب عليه التحية ..

ثم دعا الله من أجله ..



زفاف إلى الجنة

في قريتنا رجل غنى وحيد يأكل بملاعق من الفضة ويدخن في « مبسم » من الذهب . ويحاول دائما وهو يدخن أن يتشاغل بعمل ما أمام الناس في « المضيفة » لكي يهمل مبسم السجائر بين أسنانه وتكون هذه الحركة الأولى لتعقبها حركة ثانية ضرورية ولازمة ترضى في نفسه نزعات حاولت أن أفهمها فلم أستطع . فهو عندما يهمل مبسمه الذهبي ويضغط عليه بأسنانه نراه وقد ضحك لأي سبب . وهنا يشتغل فمه بريقا . . لأن له عدة أسنان قد كسيت بطرايش من « البلاتين » وتلتقي المعادن النفيسة كلها في فمه . . فضة وذهب وبلاتين . لكنه حين يتكلم يظهر التناقض جليا بين ما يدخل في فمه وبين ما يخرج من فمه .

لكنه مع ذلك لا يعلم جلساء أفاضل . بعضهم سماسرة حبوب وبعضهم تجار مواشى وبعضهم زراع خضروات . وأخيرا . . فيهم شاب حديث السن مشهور بطول اللسان . كأنما اختاره هذا الرجل الغنى ليكون في هذه المجموعة الموافقة له سلفا على كل ما ينطق به — اختاره ليشعر بلذة هجوم الآخرين عليه ممن التفوا حوله لمصالح متقابلة أو قرابة أو مصاهرة .

وكثيرا ما سأل الناس أنفسهم : لماذا يكلف « محمود » نفسه عناء الجلوس مع هذا الرجل ما دام الخلاف في الرأي بينهما لا يغيب . لكن « محمود » كان يأنس في نفسه القدرة على تغيير شيء من سلوك هذا الرجل وفي الوقت نفسه فإن الرجل نفسه كان واثقا أن المستقبل معه فهو حتما في يوم ما سيطفئ حماسه هذا الشاب وسيجعل لخلافاته وآراءه أشد إيغالا في القدم من « عزوز » سمسار الحبوب و« جابر » تاجر المواشى و« عبده » زارع البطاطس .



وبما أن ليل الريف شهير بالطول فكثيرا ما يذهب الناس لكى يقطعوا هذا الليل إلى أماكن قد لا يحبونها كثيرا . لذلك فإن مضيقة هذا الرجل لا تلبث بعد المغرب بقليل أن تمتلئ بكثير من الناس . وهناك يدور أحد الفلاحين المستنين بصينية صف عليها أقذاح الشاي الصغيرة وترتفع رشقات الفلاحين في المضيقة أزواجا وأفرادا تحت طبقة رقيقة من دخان السجائر وطبقة كثيفة من النوادر والضحكات .

وفي ليلة من الليالي المائلة إلى البرودة . الشديدة الظلمة المنذرة بالمطر . وبعد مرور ساعة من الزمن على اجتماع الفلاحين في المضيقة هتف صاحب المضيقة من بين أسنانه البلاينية ومبسم السجائر الذهبى حبيس بينها — هتف سائلا الجمع :

— الله ! .. ألا تلاحظون الليلة شيئا على مجلسنا يا رجال ؟ !

وتلفت الجالسون في كل ركن . . نظروا على كل كرسي وكل كنبه ثم نطقوا . . نطق منهم ثلاثة أو أربعة قائلين :

— آه . . « محمود » غائب يا أبو عاشور !!

فضحك وضحكوا ورد صاحب الدار معلقا بطريقة من يلذ له أن يصارع الخصم طويلا ثم يقهره :

— الجلسة الليلة فاترة . . ينقصها هذا الولد . . إن شغبه هو الفلفل الذى يوضع على السلطة . . يجعل للمكان طعما . . ربما كان حراقا لكنه . . .  
لذيذ !!

وأمن على هذه الحكم مع طقطقة حبات السبح كل من سمسار الحبوب وتاجر المواشى . فقد كانت الذرة الصيفية على وشك أن تقطع وأبو عاشور في حاجة في هذه الأيام إلى شراء ثور جديد . .  
لكن . . ما لبث الحاضرون أن انتبهوا إلى حدث وقع . . إلى محرك سيارة

يتوقف على مقربة من الدار ثم ساد صمت . . وعندئذ أخذ قلب عاشور يدق بعنف . وأخذ كل رجل من الجالسين يتذكر جرائم القرية . وغطى القلوب وجل وبدأ الجمع يتحدث بالنظرات . . وأخيرا تحرك أحد الجالسين وفي نيته أن يخرج ليرى ماذا هناك وعندئذ حال بينه وبين رغبته صاحب الدار معلنا بصوت لم يخل من الرعدة أن « من دخل فيما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه » . . وعلق أحد الجالسين قائلا : إن الشر أو الخير إذا كانا على الباب فلا بد أن يدخل . .

ولم يكد الرجل يتم عبارته ويأخذ جلسته الأولى المستريحة على الكنبه حتى أبصر الجمع بالشاب « محمود » يدخل من الباب . ولما رآه صاحب الدار سارع بسؤاله عما هناك فما كان منه إلا أن ألبس الموقف ملابس ضافية ومثل دور من يشعر بخاطر مفاجيء قائلا لصاحب المضيضة :

— إنه « بوكس » الحكومة يا أبو عاشور وقف هناك على بعد مئتي متر من بيتك ونزل من فيه . . لم أر شيئا يدعو إلى الخوف . . لكنهم على كل حال يتهايمسون هناك .

كان الشاب يعرف ماذا هناك لأنه سمع ما دار بين الرجال الذين كانوا في سيارة الحكومة . لكنه لم يشأن أن ييوح به للجالسين في مجلس أبو عاشور وكان عاقدا عزمه على أن يرى صاحب المضيضة وهو عار من جاه ماله الذي يرتديه أو يخلعه عليه بعض مجالسيه . وجلس الشاب بينهم يتلفت حتى أوهم الجالسين بقرب قدوم خطر ثم ما لبث الجالسون أن سمعوا أحذية ثقيلة لعساكر يتقدمهم مأمور المركز في ملابس مدنية دخلوا على الجالسين في المضيضة وسلموا وقعدوا . وقام صاحب البيت يدور بعلبة السجائر ودخل عليه الرجل المسن الذي يعمل القهوة فطلب صاحب الدار شايا وقهوة وقرقة على ثلاثة أدوار . ثم تعالت في المجلس بعض سعالات ونحاحات ما لبثت أن خفت



ومثل دور من يشعر بخطر مفاجيء . .

( حافة الجريمة )

ليظلل الصمت . وأخذ « محمود » يحملق في صاحب الدار ذلك الرجل المتكبر على طريقة أهل الريف الذى يأكل بملاعق من الفضة ويدخن فى مبسم من الذهب ويكسو العديد من أسنانه بطرايش من البلاتين . نظر إليه فألفاه جالسا وقد غمره الخوف فى الوقت الذى سمع فيه أحد الخفراء يجرى إلى قرية أخرى مع أحد العساكر فى مسيرة ربع ساعة . ولم يكن أحد يعلم إلى أين ذهبوا . وبدأ المأمور يتحدث بطريقة رجل يريد أن يبدد الوقت .. رجل مشغول بما هو أهم ولا يزال فى انتظاره ووقته لم يحن بعد . لكنه سيحين بعد قليل . فتحدث عن المبيدات الحشرية وخرام البطاطس وعن جمال الأمن فى ربوع الريف وأسعار السكر ورؤية هلال رمضان . . . أشياء دون العادية وحديث لا هدف له إلا قطع الوقت لكن أبو عاشور لم يكن يصدق كل هذا . حتى تصور أنه ارتكب جريمة . وقال « محمود » متعمدا :

— هل قرأتم حادثة اليوم فى الجرائد ؟!

وردت أصوات كثيرة :

— لا . .

ونظر إليه المأمور فألفاه شابا يختلف فى مظهره عن الجالسين جميعا وكانت كلمة « حادثة » بطبيعتها جديرة بأن تلفت نظره كرجل من رجال الأمن . وبعدها سأل الشاب قائلا :

— ما هى ؟ . . لعل لم أقرأها يا بنى ؟!

— فى إحدى قرى شمال الدلتا ادخر رجل ثلاثة آلاف جنيه فى قدر من

الفخار . .

قاطعه صاحب الدار هاتفا بسرعة :

— وسرقت ؟!

فرد الشاب :

— لا . . شب فى بيته حريق فانشغل عن الحرب بالبحث عنها . . وأخيرا حملوا بقية النقود . . بقايا غير صالحة للاستعمال .  
وعندئذ بدأ المأمور يعلق على الجرائم التى تحدث عادة من أمثال هذه التصرفات عن الأموال المدفونة والنفوس الشحيحة وأطنب فى الحديث فاضطرب قلب الغنى وأخذ يفكر فيما عسى أن يعمل لو حدث له نفس الشيء جريمة أو حريق .

وكان الشاب يضحك محاولا أن يعيد تفاصيل دقيقة لهذه الحادثة التى اخترعها ليفسد على الرجل أمنه وهو فى ساعة خوف واضطراب قلب .  
ثم ما لبث المأمور أن خرج بعد أن أصلح أحد الميكانيكيين خلل السيارة التى توقفت مصادفة على مقربة من دار أبو عاشور وبعد أن ذهب أحد الخفراء لإحضار الميكانيكى .



وبعد هذه الحادثة لسبب أو عدة أسباب كف صاحب السدار عن مقابلة الناس . شعر بميل إلى العزلة . . أحس أن أمنه وماله سيكونان نهبا للناس والنار واستوطن فى قلبه هذا الشعور وأخذ رواد المجلس يسألون عنه من وراء الباب ثم يعودون . إنه يشعر بقرف ولا يريد أن يرى أحدا . ثم تحولت هذه الحالة إلى مرض حقيقى جسمانى . ثم عاد الطبيب وبدأ الناس يعودونه فى فراشه . . فوق فى الدور الأعلى . . . ولأنه بطبيعته لم يعتد مثل هذه الأحوال فقد دخل فى دوامة حتى أن الأرض كانت تدور به كلما داسها بقدميه .

وبدأ يشعر بالجزع . اعتراه خوف لا مثيل له . وتذكر أمواله المدفونة وحاول أن يرشد إليها أبنائه لكنه خاف أن يطول به الأجل فيقع فى مشكلة أنهم عرفوا مكان المال . ثم . . صمم أخيرا على أن يسكت . . لكنه عاد فخاف أن يفاجئه الموت وتظل الأرض صامتة لا تنبىء عن مكان المال . . وفى أخريات

إحدى الليالى بعد أرق الألم أخذته سنة من النوم .. شعر أن الفراش يهتز به مثل أرجوحة طفل .. غمره خوف شديد لم يدر حقيقة مصدره .. لعله حلم .. إنه يحفر بكلتا يديه والعرق يتصبب منه ليطمئن على ماله المدفون .. حفر .. ونسى أنه مريض فخر متعبا بجوار القدر .. إنه يحاول أن ينادى لكن الصوت يخرج من فمه عاجزا عن أن يسمع أجدا .. وها هو ذا يشعر بالظما الشديد فخيّل إليه أن القدر ملئ بالماء لكنه عندما وضع شفتيه على شفة القدر وجد فخارها خشنا جافا قاسيا .. وتمنى فى هذه اللحظة لو يتحول ما بداخلها إلى ماء حتى يشرب .. شربة واحدة .. أو يرتوى ..

وسمع طلقا ناريا أيقظه من عذابه .. كان من أحد خفراء الليل الذين يحرسون حقوله .. وجلس فى الفراش يفكر فى سنه المتقدمة وحرصه ودورانه حول نفسه .. وفى كل حجرة من الحجرات السفلى فى داره زوج وزوجة .. هم أبناءه ينتظرون أن تزف إليهم البشري فيقابلونها بالعويل .. ذلك شيء تقليدى .. ولو استطاعوا غير هذا لفعّلوا .. وفكر .. لماذا يحنقون على ؟ ثم فسر لنفسه أفكاره فكل الناس عنده إما غيور وإما حاقد وإما منافق .. وإما .. وارث .. كلهم أعداء .. لكنه شعر بشوق إلى الصحة فلو أنه عاد سليما معافى لفعل أشياء رائعة ترضى الله وتسّر الصديق وتكمد العدو ..

وبحث عن القبلة .. واتجه إلى الله ونذر له نذرا إن شفاه ليفعلن فى سبيله شيئا يرضاه .. شيئا غريبا نادرا ..

وكان فى حقيقة نفسه راغبا فى الحياة .. لم يدع نفسه تستسلم نهائيا للمرض .. تعلق بخيط نجا به ولو أنه كان واهيا جدا .. لكنه نجا ..



وما لبث النور أن عاد إلى المضيئة .. جلس أبو عاشور بين أصفائه تاجر

المواشى وسمسار الحبوب وزارع البطاطس يضغط بين أسنانه البلاستية طرف  
المبسم الذهبى ويضحك من بين أسنانه وجمرة سجارته تتوهج محاذية لأرنبه  
أنفه . وتكلم :

— خمسة شهور يا رجال منذ مرور « بوكس » الحكومة على هذه  
المضيقة . . خمسة شهور وأنا مريض . . من كان يظن !؟  
— سلامتك يا أبو عاشور . .

وتلفت . كان مثل رجل يريد أن يفضى بسر لأحد . شعر الجميع بأن  
شيئا يثقله . وعندما فرغ من قياس المضيقة بعينين سأل :

— أين الولد الشقى « محمود » ؟

— هل حننت إلى المشاكسة من جديد « وضحك الذى يتكلم » الحمد  
لله فذلك دليل على اكتمال الصحة يا أبو عاشور .  
وعادت جمرة السجارة تتوهج ثم أخرج الرجل مبسمه من فمه المليء  
بالمعادن النفيسة ثم قال :

— من منكم جرب المرض حتى الوقوف على حافة الموت ؟ .  
فلم يرد أحد . كأنما الجميع قد خافوا من فأله السيئ غير أنه استطرد  
قائلا :

— لقد نذرت لله نذرا هو إن شفى أن أعمل عملا عظيما يسر عباده  
أجمعين . ما رأيكم !؟

عندئذ ارتفع صوت شاب منطلق جميل الثبرات يحى الجالسين ، وهللوا  
حين رأوه :

— ها هو ذا شيخ المشاغبين « محمود » . . قد حصر .  
وسلم الشاب وجلس . وأعاد الرجل ما كان يقوله . وبدأ يأخذ  
الاستشارات فقال تاجر المواشى :

— أحسن شيء يعمل يا أبو عاشور هو أن تشتري عجلين سمينين وتذبحهما وتوزع لحمهما على سكان القرية .

وهز الرجل رأسه يتشرب الفكرة وتغامز الحاضرون : « بارك الله فيمن نفع واستنفع » ، وكان صاحب الدار لا يزال في صمته .

ونظر الشاب « محمود » إلى تاجر المواشي وقال له :

— يقول المثل : « عشوة ليلة قريبة من الجوع » يعني ممكن أن يستغنى كل فرد من الذين سيهدى إليهم عن هذا ويحول المبلغ إلى مشروع نافع للناس .  
عندئذ ارتفع صوت سمسار الحبوب قائلاً :

— تاهت ولقيناها . إن المولد النبوي على الأبواب فلماذا لا أشتري لك بضعة أرادب من الأرز وتوزع على كل دار منها قدحاً بمناسبة شفائك ومولد النبي ١٩ ؟ يأكلون ويدعون لك !!

وهز صاحب الدار رأسه يتشرب الفكرة . وتغامز الحاضرون وكان صاحب الدار لا يزال في صمته . ونظر الشاب إلى السمسار وقال له :

— إنكم لا تذكرن إلا أنفسكم .

وفي هذه اللحظة دخل الفقيه الكفيف عصاه تسبق خطاه وفمه يهمهم بما لا يسمع ولما تناهى إليه عن طريق وشوشة أحد الذين جلس إلى جوارهم ما دار في المجلس قبل حضوره ضحك ضحكة عالية كانت بمثابة نداء لصاحب الدار فقال أبو عاشور :

— خير . . هذا الضحك سببه خير يا شيخ رضوان إن شاء الله .

— لفرحى بشفائك . . آه . . لو سمعت كلمة عبد فقير ما دمت تستشير

عباد الله . . توكل على الله وابن مسجدا . .

هز الرجل رأسه يتشرب الفكرة وأشعل سيجارة جديدة في الميسم الذهبي ودسه بين ثناياه البلاطينية وظلله الصمت وتغامز الحاضرون ورفع « محمود »



عقيرته قائلا :

— إن المساجد لله يا شيخ رضوان . . وعندنا في قرينتنا الصغيرة اثنان منها . لكنك لم تختلف كثيرا عن سمسار الحبوب وتاجر المواشى لأنك تبحث عن نفعك الشخصي . .

وانطلق الفقيه يشتمه : « إنك تهرف بما لا تعرف . . ماذا لو كان عندنا مائة . . أقسمت بالله ما أنا جالس في مكان يجلس فيه الصغار أمثالك » .  
وخرج . وبدأت تعليقات متناثرة قطعها « محمود » بشجاعة قائلاً للرجل :

— ابن مدرسة تعلم فيها أبناء بلدك . بلدنا صغير وفقير وليس فيه مدرسة واحدة . . أولادنا يذهبون إلى القرى الأخرى في حر الصيف وبرد الشتاء .  
رد السمسار وتاجر المواشى ورجل ثالث في نفس واحد :

— وأنت الآخر تبحث عن مصلحتك الشخصية لأن أحد إخوتك غرق في العام الماضي وهو في طريقه إلى المدرسة البعيدة . تمام ١٩

وعندئذ قام الشاب ثائرا ونظر للرجل الغني وقال بأعلى صوته :  
— أتريد أن تعرف ؟ . ابن سجننا إذا استطعت فذلك أقرب شيء إلى ميولك .

وخرج .



رأى سكان القرية في شهر أغسطس عمالا كثيرين قد حشدتهم أبو عاشور يعملون على نفقته . واجتمع الناس يسألون عن الخبر . . إنهم يردمون قطعة من الأرض منخفضة عن المزارع يتجمع فيها ماء الرش في أواخر الصيف بعد موسم الفيضان . وفي نهاية هذه الرقعة تقع مقبرة القرية .

وعندما يكون الفيضان عاليا قد يحدث أن يخوض الناس بموتاهم ماء الرش

إلى المقابر التى قد تكون نشعة أيضا .  
لذلك فقد فكر « أبو عاشور » فكرة إنسانية هى أن يبنى عدة مقابر لله تعالى . .

فجلب العمال والبنائين ليردم وليبنى مقبرة على الأرض الجديدة . على أن يكون له فى وسطها بناء مزخرف مرتفع تظلمه أشجار التوت والنخيل .  
ولغط الناس بالخبر واختلقوا . ذهل بعضهم وضحك بعضهم ونقم بعضهم . لكنه كان واقفا بعصاه ومبسمه الذهبى يرقب سير العمل ويقول :  
إنه يبنى بيوت الآخرة له وللناس . . .  
ورد أحد العمال ساخرا : « من مالك افعل ما بدا لك يا عم أبو عاشور » . .

وبعد أن سار العمل خطواته الأولى لتقوم المقبرة الجديدة التى شرع فى بنائها وافته المنية فجرى الأبناء نحو المكان ليوقفوا المشروع . ثم حملوا جثته إلى المقبرة النشعة وخاض الفلاحون بها ماء الرشح لكى يزفوها إلى الجنة .  
لكن القدر التى كانت تحوى كنوزه ظلت الأرض مطبقة عليها ساكنة خرساء لا يعلم مكانها إلا الله . .

## الأم الثانية

في صبيحة أيام العيد تكون القطارات الذاهبة إلى المدينة والراجعة منها مزدحمة بالناس أكثر من المؤلف . . وفي القطار الداخل إلى العاصمة في صبيحة هذا اليوم ركاب وضجيج وملابس وبالنونات وأمتعة أهمها « الأستة » تفوح منها رائحة الفانيليا أو الفواكه أو رائحة الفطير والخضروات . وكل هؤلاء القادمين من الريف إلى المدينة يحملون فرحة ذات ضجيج يعبرون عنها بنداء بعضهم على بعض أو بالضحكات وربما يحمل أمتعتهم الثقيلة بأنفسهم . . كل واحد منهم في طريقه إلى إنسان يحبه أو نزهة أو متعة ناسيا كل ماعدا ذلك . .

وبقدر البساطة تكون الفرحة ولذلك فقد ضج الممر الأرضى المؤدى إلى خارج المحطة بما يشبه الجلبة التي تحيط بالمراجيح — حين عبرته إلى الخارج قافلة من الريفيين . . بينهم فتاة شابة صامتة في الخامسة والعشرين ، ريفية تمشي مشية فتيات المدينة . تتعثر شيئا ما في ملابسها الطويل الأذيال لكن تموج بدنها تحت الواسع يدل العين على أنها نالت قدرا من التمدن وربما لبست الملابس الضيقة يوما ما . وعلى رأسها « سلة » كبيرة وعلى شفرتها ابتسامة صغيرة .

كانت تعرف العنوان التي تريد أن تذهب إليه ومن أجل ذلك لم تسأل أحدا عنه . وأخذ الترام يشق بها شارع كلوت بك بيواكيه التاريخية ومحلاته التقليدية وعينها تتابع طريقها في صمت حتى وصلت إلى المكان المطلوب . فهذه « دار الكتب » المخططة بالأخمر والأبيض تقع الآن على يسارها . . عليها إذن أن تنزل آه . . وهبت عليها من ميدان « باب الخلق » رائحة قديمة . . عرفت . . كان محل السردين مغلقا لكن رائحته نفذت منه وإلى جانبه

تماما محل الحلواني الذى يبيع الجوزية والمشبك والبسبوسة وحوله عديد من الناس يأكلون أو يشترون .

خفق قلبها وهى تلقى بنظرة على ذلك الشاب الذى يقف هناك فى مريلة بيضاء ناصعة مثل مريلة الطبيب « كما كانت تقول » وقد انهمك وراء الزجاج فى قطع الحلويات . لم يلحظها ولو أنها وقفت أمامه عدة ثوان فواصلت سيرها حاملة السلة لكنها بعد أن مشت بضع خطوات شعرت برغبة فى أن تعود لتسمع صوته . حتى مجرد كلمة بين بائع ومشتري . « هات وخذ » . . خصوصاً فى هذا الزحام . لكنها على الرغم من أى شيء ستنتظر من جديد فى عينيها الكاذبتين . عيناه اللتان تزيغان المشاعر وخدعتها زماً غير طويل . ونادت باسمه فلم يرفع رأسه . كأنما عاد فتذكر هذا الصوت فنظر كأنه يستيقظ من حلم ويده مشغولة بالعمل . قهقهة فجأة عندما رآها وطالت قهقهته . . أحسّت كأنه يسخر منها ثم مال بث كل شيء أن صار عادياً . . وأعطاها ما أرادت من الحلويات ونظر إليها كأنه يأسف على شيء . . ثم ما لبثت هذه الخطرة أن تولت كأنما بلعتها موجة . .

واستأنفت سيرها تحمل الحلويات ممن كانت تحب آخذة طريقها إلى من تحب . على رأسها هدية من الريف وفى كفها هدية من المدينة ولم تدر لماذا سالت من عينيها دمة وهى تصعد مرتفع شارع « غيط العدة » لتأخذ طريقها إلى البيت المقصود .

وعندما دخلت الحارة أخذت تنظر إلى الحوانيت وأصحابها الذين عرفتهم وفارقتهم منذ أكثر من سنة . ومن النظرة الأولى لم يعرفها أحد . فأحسّت بخجل . . فلم تطاوع نفسها أن تحيى أحدا منهم . لأن خمسة عشر شهراً لا يمكن أن تطمس الوجوه والذكريات هكذا . وحين شمت رائحة البخور

المألوفة التى كانت تنبعث عادة من دكان اللبان عرفها أنها على مقربة من البيت فتذكرت أيام طفولتها فيه ليالى كانت تخاف من القطط السوداء والبيضاء التى تسرح فى ظلام الحوش . . ثم . . ذكرت أيام شبائها . . ليالى كانت تخاف من الملابس البيضاء أو السوداء التى كانت تزف أحيانا بجانبها وهى فى طريق عودتها من السوق . . ثم شغلها صعود السلم . كل شئ كما هو . وحتى الزواج الذى يحلى شبائك السلام لم يكسر لم يسمح من عليه التراب . وكانت متوقعة أن ترى بين الأطفال الذين سلموا عليها وقبلوها ونادوها باسمها وهم يتواثبون على السلام — كانت متوقعة أن ترى بينهم « نبيل » ذلك الطفل الذى أحبته والذى جاءت اليوم لتراه وحملت له على رأسها هدية من الريف وفى كفها هدية من المدينة . لكن شيئا من ذلك لم يحدث . حتى إذا وصلت إلى الدور العلوى رأت باب الشقة مغلقا . والشقة منفردة على سطح العمارة وأمامها الفضاء وشمس أكتوبر تلون البلاط المعصرانى الحجرى الأبيض الذى فرش به السطح بلون أقرب إلى أرض الملاحات أحست عنده بوحشة كأنها لم تره قط .

ولكن سرعان ما وضعت « السبت » من فوق رأسها ودقت الجرس والتقطت أذنها بعد عدة دقائق صوت نبيل ابن الخمس السنوات وأخته الصغرى بنت الأربع السنوات وهما يلهوان فى الداخل ويضحكان فلم تلبث الوحشة أن فارقت قلبها — وعادت ريثما يفتح الباب — فألقت نظرة على بلاط السطح ثم تذكرت لعينهم فيه .

ولم تلبث أن سمعت — بدل وقع الأقدام — صوت زمارة يقترب . يبدو أنها مركبة على فوهة بالون نفخه الطفل ثم سار به نحو الباب ويرسل صوته تلقائيا وهو سائر ليقول مع زمر البالون بصوت شجاع حلولا لا يخلو من لشغة محبوبة : من ؟ . . من ؟ . . من ؟ . .



. تحمل الحلويات من كانت تحب ذاهبة إلى من تحب . .

وعندما سمعت صوته من وراء الباب مباشرة كان صوت البالون قد انقطع وصوت لعب الأطفال على السلم في الأدوار السفلى قد سكت كأنما انتهىء لهما الظروف أن يسمع أحدهما الآخر .

وعاد نبيل يسأل وقد ألصق جبينه بالباب من الداخل ومن ورائه أخته في يدها شخيلة ذات صلصلة حنون . وسأل نبيل .

— من على الباب ؟

عندئذ عرفت الفتاة أنه لا أحد في الداخل غير الطفلين وأنه منذ خروجها من هذا البيت وعودتها إلى الريف للزواج بعدما تبين لها أن حسن الحلواني يريد أن يعيث بها — منذ ذلك التاريخ لم تدخل البيت غيرها ممن يقمن بالخدمة . وتركت الصبي يسأل وسرح فكرها إلى طفل آخر اسمه نبيل . . هو ابنها هي . . ذلك الذي تركته مع أبيه في القرية وجاءت لترى ربة هذا البيت في يوم عيد . . تلك التي كفلتها ورعتها وزوجتها فظلت تحمل لأطفالها حتى الآن ذكريات حب غريبة . حتى أنها في يوم من الأيام قالت بسذاجة لزوجها هناك وهي تحملق في وليدها : « لو رأيت نبيل ابن الأستاذ سعد لرأيت ملامحه في وجه نبيل ابني .. » .

فحملق فيها زوجها وضحك . . ففطنت إلى سذاجتها وقهقهت .  
وها هو ذا صوت الصبي يأتي من وراء الباب سائلا :  
من ؟ من ؟

— أنا دادا زينب يا بلبل . . أين ماما يا بلبل ؟ !

فعلا صياح وهياج . حركة غير مضبوطة من طفل لم يتحمل الفرحة فأخذ يهز الباب ويدقه بقدمه وأخذت أخته تضرب الخشب بالشخيلة وتقول كلاما غير مفهوم لكن فيه رائحة الفرحة .

أما الصبي فإنه هدا قليلا بعدما فطنت الفتاة إلى أنها أثارت عواطفه



وحاولت تهديته بالحديعة قائلة له : « انتظر يا بلبل . . أنا سأفتح الباب بالفتاح الذى معى . . انتظر . . اهدأ انت حتى أستطيع فتح الباب » .  
وأخرجت من جيبها قرشا . . قطعة معدنية . . وأخذت تحكها فى ثقب المفتاح لتحث صوتا يشبه محاولة فتح الباب وفى هذه الأثناء « كان صوت الطفل يأتى إليها وقد غلف بشخلة اللعبة التى فى يد أخته قائلا لها :  
« دادا زينب . . وحشتينى ( وحشتينى ) ماما فى السغل ( السغل ) وبابا فى السغل ( السغل ) وبكره العيد يا دادا زينب . . . افتحى الباب علشان أبوسك » .

كانت فى هذه اللحظات تحك قفل الباب بالقطعة المعدنية التى أخرجتها من جيبها لتوهم الصبى أنها تعالج فتح الباب . والسبب إلى جوارها على الأرض يحوم حوله قط كبير . . مخطط الجلد كأنه ثمر . عرفته من قديم فطالما طارده عبر الشقة معتديا وعبر السطوح معتديا كذلك . . . وذكر هالون عينيه بلون عينى زوجها . . وبالتالى تذكرت ابنها الذى أقفلت عليه باب الدار وحده وهو طفل فى اللفائف بعد أن ملأت له بطنه باللبن . . . لم يكن أبوه إلى جواره أيضا . . كان يشتغل فى إنشاءات السكة الحديد على بعد ستة كيلومترات من القرية وهى تذهب بعد طلوع الشمس إلى حقول القطن . . . تهز الندى عن الشجر فتذكر تقاطر اللبن فى فم وليدها . . وكثيرا ما هاجمها وسواس أن ابنها قد تعرض للخطر . .

وأخذت تحك القفل بالقرش وريقها جاف :

— افتحى يا دادا . .

— حاضر . .

— ماله مفتاحك ؟! أنا سامع صوت القط الكبير . . اضربيه أحسن

بعضنى . .

وأرادت أن تفتح له باب الاستطراد في الحديث :  
— أنه لا يعرض إلا القلط . لا يعرض الأولاد أبدا . هل تعلم أنني خلفت  
ولدا اسمه نبيل . .

وبفرح شديد ودقات على الباب تشبه دقات طبلية غير مضبوطة وصوت  
شخيلية كوثر جاءت ضحكات الصبي وأستلته :  
— في المدرسة النهاردة يا دادا ؟  
— لا .

— ايه ؟ علشان بكرة العيد ؟  
— نعم . هو ولد شجاع لا يخاف من شيء . تركته وحده في البيت  
وذهبت إلى الشغل أنا ووالده فظل يلعب ويغنى حتى رجعنا إليه . .  
— ورجعتم والعيد معكم ؟  
— ورجعنا والعيد معنا .

— أختي كوثر تحب البون بون يا دادا . . و . .  
وتركته يحكي ذكريات وخيالات وحقائق وعادات هي بذاكرتها إلى آخر  
ليلة ودعت فيها هذا البيت عائدة إلى الريف لتتزوج . ليلة قالت لها ربة البيت  
كلمة لا تزال تذكرها : « أنا لست خائفة من فراقك لأنني أعرف أنك هناك  
ستعيشين نفس الحياة . فأنت وزوجك لابد لكما أن تشتغلا مثل حالي أنا  
وزوجي تماما » .

ثم استطردت في ابتسامة راضية : « ربما كنتما ذات يوم أحسن حالا . .  
لأن طبيعة العمل في الحقول لن تستدعي الشغل يوم العيد . لكن زوجي  
الموظف في السكة الحديد وأنا المشرفة على دار الكفيفات قد يحدث أن نغيب  
معاً عن بيتنا في يوم عيد . كل الذي يؤلمني أن الأم الثانية لنيل ستبعد عنه . .  
هذا كلام جميل . ولكن أفرضي أنك سميت ابنك « نبيل » كما تحبين فهل  
معنى ذلك أن ابني سيسلو عنك ؟ » .

ومن خلال ضحكها الواهنة استطردت : « هل تشعرين أنه لن يكون هناك فرق بين ظروفى وظروفك . . أم نبيل فى المدينة مثل أم نبيل فى القرية . . ستشتغلين بيديك وقلبك ملئ بالحب وصدرك ملئ باللبن . . مثل تماماً ليس هناك فرق » . . وقبلتها وهى تقدم إليها الهدية الأخيرة . حلية وملابس من الحرير والقطن . . وزجاجة عطر . . لا تزال تحتفظ بها . . لا تعطر منها إلا مرتين فى السنة . كل مرة يوم عيد .

وها هى ذى رائحتها تفوح من ثوبها الآن وهى تعاود حك قفل الباب بقطعة من النقود ونبيل فى الداخل يثرثر بحكايات عنه وعن كوتر ويشتم القط كلما سمع مواءه ويتحدث عن يوم ذهابه إلى المدرسة ويسأل عما إذا كان ابنها قد نجح مثل ابن جيرانهم الذى سقاه الشربات .  
وفجأة ساد صمت وجلست « دادا » على الأرض منهكة القوى فقد مضى عليها فى وقتها نحو ساعة .

وبكى الصبى فى الداخل : « أنت بتضحكى عليا يا . . . »  
ثم ارتفع صوته وأحست فيه الفتاة رنة غريبة وجديدة !  
« لا . . أنت مش دادا زينب أنت حرامية » .  
وارتفع صراخه .. وكانت أخته تشغل . . تركته وحده يبكى وفجأة شاركته فى البكاء . .

نظرت زينب إلى ما حملته فى يدها من دكان الحلوانى من أجلهم وما حملته على رأسها أيضا . وخيل إليها أنها تسمع صوتا ثالثا فى الداخل يشاركهم البكاء . . وأقعى القط وأخذ يموء فى حزن لأنه يتطلع إلى طعام لم ينل منه إلا رائحته وأحست الفتاة أن صدرها ملئ باللبن . . وكانت على عزم أن تعود آخر النهار لكى تبيت فى دارها . . وها هو ذا الباب يحول بينها وبين من حملت الهدايا إليهم وصوت بكائهم يأتى إليها متقطعا . . ثم ابتعد . .

( حافة الجريمة )

وفجأة وجدت نفسها تشمر أذيالها ثم تقف إلى الباب وكتفها إليه ثم تدفعه  
بقوة فلاحه . . فانفتح . .  
ودخلت فاحتوت الطفل بين ذراعيها . . وردت الباب . . وعادت  
الذكريات القديمة . . وارتفعت ضحكات الطفلين في المسكن .



وعندما عادت ربة البيت أدهشها أن ترى الباب مفتوحا . لكن زينب قالت  
لها وهي تبكى وتضحك . إنها لم تستطع إلا أن تكسر الباب فذلك أسهل مما  
تحمّلت .  
« إننى راجعة إلى بلدى يا سيدتى بعد ساعة لأن زوجى لم يسمح بغير ذلك . .  
وصدري ملء باللين ونبيلى ينتظر أن أرجع إليه هناك والعيد معى . . كما قلت  
أنت لنبيلى هنا » .  
ولم تلبث قبلة وداع أن سمعت بين الاثنتين .

الدرس



شعر بنوع من الراحة لم يكن رآه من قبل عندما فتح له هذا الرجل المسن  
البدين باب آخر حجرة على يمينه في الممر الطويل الذى غطته عتمة الليل ولم  
تبدد ظلماته المصاييح المتباعدة . . انحنى الرجل وهو يفتح له الباب ويتراجع  
ليفسح له طريق الدخول وهو يقول :  
— تفضل يا سيدى . . تفضل . .

عندئذ شعر بنوع من الراحة لم يكن رآه من قبل ، لقد أتعبه البحث في  
المدينة عن حجرة في فندق ينام فيه ناسيا أننا في شهر يولييه وليس في  
الإسكندرية مكان لنزول لا تخدمه الظروف لذلك فإنه لم يستطع من فوره أن  
يلحظ مدى مساحة الحجرة أو نوع ما فيها من أثاث فكل ما كان يريجه هو  
أن يضع جنبه على شئ ثابت . . سرير . . أو حشية . . أو أرض عارية  
وعندئذ سيستشعر لذة نادرة ربما توصف بعد أن تذاق .

وأقبل وراء باب الحجرة واستلقى بملابسه كلها على السرير . ولم يكن  
يدرى بالضبط أين يضع حقيبة سفره . لكن هدوء الحجرة وما منحته من  
راحة ذكره بأيام الطفولة . . بما كان يلقاه في أحضان أربع أمهات تتلقاه على  
التوالى وربما تنازعت في حنان لا يوصف . أيام كان صبيا يلعب ثم يدخل متعبا  
إلى بيتهم الريفى الكبير فتحضنه في حذب على التوالى خادمة مسنة وخادمة  
شابة وأم مسنة هى جدته لأبيه ثم أم شابة لم ترزق بولد سواء .

ولأول وهلة بعد سقوطه على الفراش في هذا الفندق المتواضع أخذته سنة  
من النوم لذتها لا توصف . خيل إليه أنه لم يذق مثلها قط لا فى السرير النحاسى  
الضخم التائه فى الحجرة الواسعة فى البيت الريفى قديما ولا السرير الخشبى  
الحديث الذى تنام فيه زوجته الآن فى القاهرة .

وعلى صوت نشيش الماء الآتى من الحمام الملاصق لحجرة نومه فى الفندق استيقظ بعد ربع ساعة . . عندئذ جلس فى الفراش . ونظر فى ساعة معصمه فإذا بها تشير نحو الحادية عشرة مساء . ثم ألقى نظرة على نفسه « من الخارج » . ولم يكن يدرى لماذا قد استحال فى هذه الآونة إلى شخص « مكرر » كمن يرى خيال نفسه فى عدة مرايا ولذلك فإنه عندما ألقى نظرة على نفسه رأى قميصه المبلل بالعرق وشم رائحة قدميه العاريتين من الجورب وكانت على الحشية الخفيفة أضخم حجما فى نظره عن المألوف لكثرة ما مشى هذه الليلة .

شعر أنه ليس فى أناقته القديمة فهل كان يسمح لنفسه مثلاً أن يجلس متربعا بالبنطلون ؟ أو أن يسير حتى ينقطع جوربه من الخلف ؟ !  
على أنه عندما مدد ساقية على الفراش وطقطقت مفاصله أحس بلذة جديدة فعاد فرقد كما كان وأخذ يتأمل هذه الحجرة التى عثر عليها بعد جهد . فى هذه اللحظات فقط بعد أن زالت حدة التعب والحاجة استطاع أن يقيس مساحتها « متران ونصف فى مترين ونصف » . فيها هذا السرير السفرى وقطعة صغيرة من الأثاث هى صوان للملابس وفى الحائط المقابل للباب نافذة صغيرة مقفلة حتى الآن لم ير ما وراءها والسقف منخفض جدا . فيه مصباح عار غير ساطع النور وليس فى المكان أى صوت سوى ما يأتى بين حين وآخر من خرير الماء فى الحمام القريب وعلى الحائط فوق زر النور صورة لراقصة « باليه » من مجموعة نسائية يبدو ببساطة أنها فصلت من إحدى المجلات وعلقت فى ذلك الإطار الزجاجى الرخيص التكاليف .

وفجأة وجد نفسه يوازن بين هذه الحجرة وبين تلك التى ترى فيها . . كم تمنى لو كانت ضيقة عليه أيام صباه ؟ ! كان الجزء الواسع المفروش بالحصى المنقوش والبساط الأخضر يبدو فى الليل مليئا بالأشباح وصور العرائس



الحاملات المزاهر لم يكن يراها في النهار هناك ولم يكن يرى فيها جمالا ولا قبحا . . فلا يكاد يحس بأن على الحائط نقوشا وزينة . أما في الليل فهي تبدو قافلة من الجنيات . وكم تمنى أن ينام في حجرة ضيقة أو ينام معه في هذا الاتساع ناس كثيرون .

وهو الآن في حجرة طولها متران ونصف وعرضها كذلك . عثر عليها بعد جهد . ليس فيها بساط ولا سجادة لكن فيها غفوة لذيدة . . واسترخاء لا يوصف . لجأ إليها من مشاكل تركها مؤقتا . . طفت فجأة على صفحة حياته كما تطفو الجثة على صفحة النهر . . ولم يطق أن يتحملها ببساطة فلما رأى الخلاف قد بدأ يتوطد بينه وبين زوجته آثر أن يترك موطن الخلاف فركب إلى الإسكندرية هكذا كما اتفق ووصل هكذا كما اتفق وأعياء البحث عن حجرة في فندق حتى استقر في هذه الحجرة .



مد يده فأطفأ النور ثم قام إلى النافذة ووقف فيها ومن خلال الظلام النسبي فاحت من الحارة الخلفية الواقعة عليها الحجرة روائح غامضة خليط من الفواكه والسردين وجو الرطوبة . ولم يدر لماذا أحس بحاجة إلى استنشاق الهواء كأنما هو في جو غريب يريد أن يتعرفه فملأ صدره منه . ثم أطل على الحارة .

كانت ضيقة هادئة تملأ ناحيتها المقابلة مدرسة مكونة من طبقتين مقفلة طوال الصيف وعند ناصية المدرسة عدة دكاكين رأى منها على مقربة منه — لأنه في الدول الأول — دكان رفاء ودكان ساعاتي . جلس صاحباهما متقاربين كل على باب دكانه يزاول عمله تحت مصباح قريب من وجهه تدلى من سلك . . . كل منهما يعمل في صمت والمكان صامت فخليل إليهما أعديا المكان بالسكون على أن جناح النسكينة كان يرفرف على الحارة .

ولولا الروائح الفضولية لكاد يتصور أنه يطل على معبد .

وكان كلا الرجلين يستعين على عمله بكل ما فى نظره من قوة . غير أن الرفاء استحوذ على مشاعره كلها فقد كان أصلع يقع جزء من النور على رأسه فيبرق وأمامه قدح من القهوة وفى يده جورب لسيدة يرفو فيه قطعاً كبيراً وبين آونة وأخرى يذق جرس مكتوم يأتي بصوته من « الفاترينة » الزجاجية الصغيرة التى وضعها الساعاى أمامه . وهذا الجرس من « منبه » تحت الإصلاح . وكأنما كانت دقاته تنبه الرفاء من شبه نعاس أو استغراق ذى أعماق يتألم عندما يسحب منه فيلقى بنظرة عابرة قصيرة إلى الناحية التى فيها جاره ويعود إلى ما كان فيه .

قال فى نفسه وهو ينظر إلى العمل الصامت الذى لا تقطعه نائمة ولا حركة : « إنه يعيد نسج الجورب . . يا الله . . إن كل إعادة عملية لا تخلو من مشقة حتى صواب الخطأ الذى كنا نكلف به ونحن تلاميذ . . آه » وتهد « أما هذا الرجل ... » .

وعندئذ رن جرس المنبه فى يد الساعاى رنة قصيرة تدل على أن « العدة » لم تصلح بعد لكن الرجل عاد فسأل نفسه : « كم أريد أن أعرف طريقة سلوك هذا الرجل مع زوجته فى البيت ؟ هل ياترى يأخذ أموره كلها بهذه الطريقة الصابرة التى تبني من العدم وترمم من الخراب .. لا يغضب . . ولا ييأس ولا يرى فى الدنيا طريقاً مسدوداً ؟ .. آه لعله كذلك » . وعادت إليه ذكرى مشكلته تلك التى لا يكاد يعثر لها على حل . فهو وزوجته يشغلان وظيفتين فى وزارة الصحة وعندما تعرف كل منهما على صاحبه كانا فى مدينة أسيوط . . دب بينهما الحب . . فى مستشفاهما المركزى . فتزوجا . .

حسن . . لكن بمرور الزمن كان لا بد من تعدد أفراد الأسرة وراود الزوجة شيطان جميل . . هو العودة إلى القاهرة حيث مسقط رأسها

والذكريات والأسرة والأم الحنون التى تترك عندها الأطفال ريثما تعود من المستشفى . . حكيمة .

ودق جرس المنبه فى يد الساعاتى فجبر أفكاره إلى الحارة . . نظر إليه ثم إلى الرفاء كان فى هذه اللحظة يجادل سيدة بصوت خافت ثم ارتفع الصوت حتى سمع الحوار :

— لكن ما تطلبه من أجرة يمكن أن أشتري به جوربا جديدا .  
ظل كما هو . . الإبرة تنسج والصوت خافت يسمع بالكاد .

— ولماذا جئت به يا سيدتى ؟

ضحكت السيدة فى دلال . . وبعد صمت قصير جاء ردها :

— لأن لهذا الجورب ذكريات . .

— احتفظى به مقطوعا .

— وهل يحتفظ أحد بحبيبه ميتا على سبيل الذكرى . . إننى أريد أن أحييه .

— أنت تريد أن تحييى الشئيين معا . من أجل هذا ستعبين .



قال فى نفسه وهو فى النافذة : إن زوجتى تريد الشئيين معا . وهناك شيئان لا يجتمعان . بادلت زميلة لها فرحلت هى إلى القاهرة . . على أساس أن ينقل زوجها إليها لكن . . تبين لها أن مطلبها غير قانونى . . فقد كانت مع زوجها من قبل . وبذلك خسرت الزوج مسعاه عاما بعد عام حتى أصبح يشعر بالوحدة والخسارة والفراغ . ولم يكن قادرا على أن يدفع إيجار شقتين إحداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب ثم كان عليه لكى يرى أولاده أن يسافر إلى العاصمة فرأى زوجته فى هذه المرة وهى تعاني آلام المخاض . وكان لا بد أن ينتظر حتى تلد ثم

دب بينهما الخلاف حين قال كلاما معقولا : ما دام أنه من المحال أن أنتقل أنا إليك فعلياً أن نسعى لتعودى حيث أنا . .

— وهل هذا معقول ؟ ! إن رعاية أطفالي في غيبتى موكلة إلى أمى . . آ . .

وأجهشت بالبكاء وهى ترضع الطفل فشعر ساعتئذ بضيق لا يقاوم . فأخذ يصيح ويصرخ معبرا عن آلامه ومتاعبه واحتياجاته . أما هى فقد عملت ما تعلمه أضعف امرأة . . شرعت السلاح السلبي المهلك . . تركت دموعها تجري من عينيها إلى خدها إلى عنقها حتى كادت تصل إلى فم الرضيع . فلما رأى هو ذلك خرج غضبان مسافرا إلى مكان لا تعرفه . . إلى حيث هو الآن . . يطل على الحارة الهادئة التى أفعمت أنفاسها بتلك الروائح الغامضة واسكرتها هدأ الليل . . ولولا هذان الرجلان اللذان يعملان ما بدا فيها إلا النوافذ المقفلة للمدرسة المواجهة .

لكن جرس المنبه رن رنة واحدة فى يد الساعاتى فجره إلى تحت إلى حيث الرفاء يعيد نسيج الجورب الذى مزقته الحركة وكانت السيدة قد جلست على كرسى جواره . . . بلا مسند وكانت تقول :

— لكن أنا مصممة على أن أنال الشيعين معا . . سأر فى الجورب وأدفع ما أريده . .

— ممكن أن ترفيه ولا تدفعى شيئا . .

وتهللت المرأة لهذا الحديث وقرقرت ضاحكة :

— ياه . . أشكر لك ذوقك ..

رد بإهمال الآلة :

— ليس هذا قصدى .. قص أن تتعلمى كيف ترفين جواربك بنفسك

وعندئذ لا تدفعين شيئا .



وتهللت المرأة لهذا الحديث وقرقرت ضاحكة

— ظننتك تجاملنى . .  
— المجاملات لا تحل المشكلات . .  
— لكن آه . . إنها صنعة مملة . .  
— بتاتا . . لو كان فيها ملل لضاق صدرى من مساوماتك . .  
— ذلك طبيعى . .  
— لكن تذكرى أنك تساومينى على نور العين . .  
— هل غضبت ؟  
— بتاتا ؟ ! . . ما على فى مثل هذه الحالات إلا أن أتصور أننى  
« أرفى » كلام الزبائن بدلا من أن أرفى جواربهم . .  
وعندئذ جلجل ضحك المرأة وضحك الساعاق وجرس المنبه فى لحظات  
متتالية فابتسم الرجل الواقف فى النافذة وحملق طويلا فإذا بالمرأة تلقى إليه  
بجوربها وإرادتها معا . . مسلمة بكل ما طلب من أجر .  
ثم استدارت منصرفة . وظل هو فى مكانه . . وضع جوربها أمامه  
وإستمر يعمل بالإبرة ولا شىء يتحرك فيه إلا الأنامل . . .  
\*\*\*

دخل الرجل من النافذة واستلقى فى الفراش . نظر إلى مساحة الحجرة  
فألفاها واسعة مريحة كأنها فى سعة حجرته القديمة المفروشة بالحصير والبساط فى  
الريف . . عليه إذن أن يعالج مشاكله بنفس الطريقة التى عالج بها الرفاء  
موقفه . . وسأل نفسه بالحاج : « لكن . . كيف يتصرف هذا الرجل مع  
زوجته ؟ ! » وجاءه جواب « إن كان باب النجار مكسورا . . فهذا لا يهم  
الزباين فى شىء » .

واستغرق فى نوم عميق ثم قام وقت الصباح فأخذ حماما باردا . . ثم . .  
استقل القطار إلى القاهرة . . وهناك ودع أسرته فى صمت دعما وزوجته إلى

التفكير الطويل .



مضى شهر ولم تتلق منه رسائل . وكلمته في التليفون فاعتذروا بأنه بعيد في  
أحد أطراف المستشفى . مر نصف شهر . ثم جاءت بها منه رسالة تقول :  
« إذا كنت ترغبين في اجتماعنا مرة أخرى فقد دبرت الأمر لزوجين في  
مستشفى واحد . وهناك في أسوان حصلت على مكان لي ولك مكان شاغر  
بانتظارك . . فإن شرفت فأهلا . . وإلا شغلت المكان امرأة أخرى . . يا  
حبيبتى . . أرجو . . أن تفهمي قصدي تماما ولا تجزعي فإن المكان الذي  
أقصد أن تشغله امرأة أخرى هو في المستشفى لا في البيت ولا القلب » .





مملكة التراب

جو الليلة ليس مطيرا . وإن كان في السماء سحب منخفض يجرى في اتجاه الجنوب . ومن الحقول تفوح رائحة نوار الفول ورائحة آجر محروق حديثا في قمينة خمدت تحتها النار . .

وحول الخيام المفروشة بالقش انعقدت غلالات متذبذبة من الدخان الصاعد من الكوانين . وليس مع الدخان روائح شهية . ليس معه إلا أغان متهافنة تدل على الانتظار . . مع صوت الجنادب المدفونة في الطين أو اللابدة في الحقول . وسعال متفرقة وقهقهة مجهودة ليست في الحقيقة ضحكة بلغت ذروتها إنما هي استشارة للضحك أكثر من أى شيء .

وعاد بعض الرجال بقوالب من الآجر من القمينة ونصبوها كوانين . وبعضهم عمل منها إطارا حول الخيمة من الخارج حتى لا يعبث الهواء بقماشها ويتسرب البرد .

وفي إحدى الخيام رجل يغنى . رائق الصوت ضعيف الجسم واسع الفم كبير الضحكة . سعيد من يأكل معه فهو يجعل النكت أداما للخبز . . أحلام اليقظة عنده تجرى على هيئة سيال لا ينقطع . . في النهار أو في الليل وهم يطهرون المصارف أو يتناولون الطعام أو يشربون الشاي . اسمه إبراهيم الرقاص وقد لحقه هذا اللقب من جراء مهنة فرعية له . فهو يشتغل بتبييض النحاس في بعض المواسم وعندما ينضب الرزق في هذا المجال يسافر مع عمال التراحيل . . حرفته علمته الرقص ولذلك فهم يجبرونه على أن يرقص إذا ما طاب لهم أن يروا أردفا تتحرك .

صوته الليلة حزين . . ينبعث من خيمة في الوسط فيها عشرون رجلا يغنى لهم في انتظار الطعام . وقدر كبيرة على النار فيها عدس لا يريد أن

ينضج . . لا تستجيب للنداء كأنها إله وثنى قاس أصم عن النشيد أعمى عن  
البخور . وفجأة كف عن الغناء وكأنه تذكر شيئا . وبدت على ملامحه جدية  
طارئة حتى حملق فيه أقرب الجالسين إليه وسأله عما أصابه وعلل رجل سبب  
سهومه الطارئ بأنه ربما تذكر زوجته الراقدة الآن تحت السقف وتديها الذي  
نسيته خارج الجلباب ونامت قبل أن ينام ابنها « خليل » الرضيع .

لكن الرجل لم يرد . فانفتحت أفواه الرجال وكل يرمى عليه همومه . أو  
يثيره ليتكلم أو يحكى أو يغنى . لكن صمته طال حتى قذفه أحدهم بحفنة من  
قشور الفول فقال إبراهيم بعدها وكأنه يلقي اتهاما :

— أنتم لا تعرفون لماذا سكت . . لأنى حزين .

وعلى الرغم من ارتفاع ضحكات لا تقدر العواطف استطرده :

— إنكم لا تتقدمون . إنهم فى بلاد بره لا يفعلون هكذا .

وارتفع ضحكهم حتى صار ضجيجا فاضطر إبراهيم إلى رفع صوته وكأنه  
يخطب وقام واقفا واتكأ على العمود الأوسط فى الخيمة واستطرد :

— ابن أم رفاقة هذا يسأل عما أقصده ببلاد بره لأنه لم يرها . . آه . . نعم  
أما أنا فقد رأيتها . إنهم فى بلاد بره لا يطبخون العدس بهذه الطريقة التى  
يطبخه بها هذا ( العشماوى ) بالسوس . . هناك يضعون عليه الكمون  
ويغرفونه فى الأطباق ويسلقون معه اللحم . . وربما مسوه وصبوا عليه سمنا  
مقدوحا . هل عرفتم الآن أين بلاد بره ؟

رد موج من الأصوات يصخب سائلا :

— لا يا بو خليل . .

فضحك وهو يجلس جنب العمود وكأنه فرح بأن خدعهم . . ورد  
بصوت لين خفيض نصف مؤنث يثير كوامن النفوس المغتربة :

— بلاد برد هى التى تنام فيها زوجاتنا الآن مع دفء الأفران والماء الساخن  
( حافة الجريمة )

وصابون فيه رائحة العرايس . . بلاد بره هى التى فيها الفراش والسقف يا أغبياء .



وعم صمت بعد أن جلس . لم يعد يغنى ولا يرقص . أطرق حتى استقر ذقنه على صدره . وصمت الرجال مشاركين له والقدر تبعث ببخار أمسى فى أعينهم قليل الأهمية . وزحف على المكان صمت الحقول وأفدأ من الخارج لأن معظم من فى الخيام الأخرى قد ناموا . لكن صوت محرك سيارة بدأ يقترب فأقلق السكون . . « هذا معقول ؟ » ونظر بعضهم إلى بعض . إنها ولا شك إحدى سيارات « جب » فليس من الممكن أن تمر سيارة أنيقة فى مثل هذه الأماكن . وخرجوا يحملقون فإذا نور كشافات على الطريق الرئيسى منح من الأنس قدر ما منح من الدهشة . استيقظ من فى الخيام كلهم حتى أيقنوا أن القادم فى الطريق إنما يقصدهم .

وكانت السيارة تتوقف بين حين وحين مما يدل على أن من فيها يقفون قليلا عند كل مجموعة من الخيام التى ينام فيها عمال آخرون . ثم بدأت السيارة تستأنف سيرها يسبقها خطان من النور يفرشان الطريق الوعر . حتى وصلت إليهم فكان إبراهيم أول من جرى ليستقبلها :

— ماذا جرى لكم ؟ هل قامت الحرب الثالثة ؟ .

ورد عليه صوت مألوف فيه خشونة الصنفرة :

— اسكت يا رقاص . . سحبوك من لسانك دون عباد الله . . أكلك

وابور . .

ضحك بإهمال ومسح عينيه بكم جليابه واستطرد :

— إذن لماذا جئتم ؟ لعل العمدة خلف ولد يرث العرش من بعده فحملتم لنا

البشرى . هل نزعرد ؟ !

ونزل صاحب الصوت الخشن وهو الموكل بكل الأنفار من قبل المقاول نائبا عنه وكان معه رجلان غريبان لم يعرفهما أحد مما جعل الصمت أكثر حذرا وأكثر طولا . ووقف الرجال الثلاثة يلقون نظرة كأنها جديدة على الخيام التى غيرها الدخان وتخرفت فى بعض أماكن وعلى تلال الطين والتراب على المصارف ثم دلفوا إلى إحدى الخيام وتبعهم العمال . حيث جلسوا قليلا . وقام أحد المتحمسين يصنع إبريقا من الشاى رفضه أبو عزوز ذو الصوت الخشن بإشارة قلقة ثم قال لهم :

— اسمعوا إن المقاول . . . آه . . . انتقل . . .

قاطعهم إبراهيم الرقاص فى شجاعة مترددة :

— فلينتقل إلى أى مكان يعجبه . . . والله لن نتقل من هنا إلا بإرادتنا نحن . . . كفاية . . .

— يا مغفل . . . أصبر . . . « ثم تكلف الحزن » لقد انتقل إلى رحمة الله وهو يصلى المغرب وأصبحنا جميعا مثل أولاد بلا والد . . . و . . .

وحشرج صوته من البكاء المحبوس . . . ونظر الرجال بعضهم إلى بعض يريدون أن يروا الفارق الدقيق بين الحزن ودمعة الفرح حين ترتدى السواد . لكنهم أحسوا — ولا بد أن من فى الخيام الأخرى قد أحسوا — بأن فرصة مجهولة ترفرف على هذه الخيام .

لكن أبو عزوز سيملك فرصة حقيقية . فهو الرجل الوحيد الذى يمكن أن يتقدم للمقاول الإغريقى لضمان ماله . وعندما يعلم هذا المقاول بوفاة رجله الأول فلا شك أنه سينهار فإن ألؤفا من الجنهات التى نثرت على هذه الترع ربما تضيق وعدد من الرجال سيسعى منذ الصباح التالى إلى الخواجة « بترو » فى الإسكندرية يعرضون عليه السير بالعمل إلى بر السلامة بعد أن مات المقاول

حتى لا تضيع الأموال التي نثرت على التربة .  
وبدأ العمل في اليوم التالي مترنحا قلقا وهرب كثير من الأنفار إلى قراهم  
خصوصا بعدما بدأت أحوال الجو تسوء . وكان الخواجة « بترو » ينام كل  
ليلة مكتعبا بعدما يستمع إلى آخر نشرة جوية من الراديو مثل صياد ربط قاربه  
على الشاطئ . لكنه في اليوم الثالث جاء إليه رجل مهيب . كان الخواجة بترو  
يعرف اسمه ولا يعرف شخصه . وجلس يتحدث معه في شئون العمل  
وذكره بماضيه . . بماضى الخواجة بترو نفسه . أيام كان يعمل مساعدا لناظر  
زراعة في إحدى العزب . وكان أيامها وهو شاب مولعا بأكل الأوز مما جعل  
نساء الفلاحين هناك يتبارين في إهدائه إليه . وضحك بترو بوجهه الدموى .  
لكنه أحسن أن محدثه مفتقر إلى اللباقة . فإن أهل العز قد يجرحهم أن تذكرهم  
بماضيهم . ثم انتقل الضيف إلى الحديث عن العمال . هؤلاء الآلاف  
المنتشرون على المصارف والترع . . لو رأيتهم من طيارة قرية من الأرض  
وهم يتسربون في التراب لأيقنت أنك في قرية النمل . وحدثه عن طباعه . .  
إن الخواجة بترو يعرفها ولكنه اليوم يود أن يعرفها ويحب ألا يسمع عنهم شيئا  
في وقت واحد . وأخذ الضيف يؤكد له أنه من الخير أن يكل أعماله بعد  
المرحوم إلى مثله هو لأنه من أبناء المهنة . ولأنه خبير بأسرار هذه النفوس التي  
إذا أطعمتها طمعت وإذا أطعمتها طمعت . وخير ضمان لك أن تكون دائما  
موضع رجائهم على بعد . ينظرون إليهم مثل السحاب . وباسمك يتصرف  
رجل منهم خصوصا في هذه الفترة التي اضطرب فيها العمل بعد موت  
المقاول . وإنهم حين يرونك يا خواجة ( بترو ) سيتذكرون أشياء مثيرة .  
بعضها يضايقهم وبعضها يغريهم لكن عصا الخيزران في يد رجل مثلي تخيف  
الفأس في يد رجال من أمثالهم . وربما كان المسدس في يدك لا يخيف أكفهم  
الفارغة . .

واعترى الخواجة ( بترو ) بعد سماع هذا غم شديد . وجعل يفكر . إن الذين دخلوا عليه من قبل لم يقولوا شيئا مثل هذا . لم يثيروا فيه الخوف . ظهروا على هيئة من يعرضون التبعية : « نحن في خدمتك » « سنكون مثل هذا الخاتم في إصبعك » . . « أمر » . . ولا شيء بعد هذا . فلم يحس صاحب الأموال أنه أمام شخصيات ممكن أن يعرف فيها مكان الخير ومكان الشر . أما هذا الذى أطنب معه فى الحديث فقد أخافه حقا . لكنه مع ذلك كاد يشعر بأن له شخصية مميزة . شخصية اللص الحاذق . أو شخصية الناصح الذى يقدم النصيحة بكل ما تحل من مرارة . فكاد يميل إليه . لكنه رغب فى أن يمنح نفسه فرصة فقال له : « إنى أرغب فى أن أراك مرة أخرى بعد يومين لا أكثر . ثم رقد الخواجة بترو يحلم بالمصاعب فمن ذا الذى يضمن له بضعة ألوف من الجنيهات . غير المستقبل . ولم يكن قد اتخذ قرارا ما .

وفى صبيحة اليوم التالى قدم إليه أبو عزوز . دخل عليه متواضعا طيبا . ولم يكن فى حاجة إلى أن يعرفه بنفسه فلقد رآه مع المرحوم عدة مرات لكنه لم يكلمه . كان يراه ماشيا مع المرحوم كظله وقت الظهيرة . تحت قدميه باستمرار . يأمره فيطيع وينهاه فينتهى وأخذ يرحب به . قدم إليه القهوة فادعى أنه لا يشربها . وقدم إليه سيجارة فادعى أنه لا يدخن ثم أخذ يتحدث فى الموضوع :

— يجب أن ترى عملك بنفسك يا خواجه بترو . لا تفكر الآن فيمن سيحل محل المرحوم ولا فى النقود التى ضاعت ولا فيما سيحدث . لا شيء أعظم من أن ترى عملك بنفسك وسأكون بجوارك . إن هؤلاء الذين يمسكون الفئوس لا يخيفون أحدا . إن الصوت العالى يجعلهم ينكمشون فحاول أن تكون مرتفع الصوت وبعد ذلك فدع الأمر لى .  
— لكن . . يا أبو عزوز . . إن معهم فئوسا . .

فضحك الرجل في هدوء وبدت على وجهه شفقة الريفي حين تنطق فتوحى بالحنان فاطمأن بترو إلى سماعه :

— سيرفعونها لتحيتك فلا تخف . سأكون معك . وإذا فكرت في التأخر عن المرور فالله يعلم مصير ما يحدث . سيهربون مائة بعد مائة . . ويضيع مالك وتدفع غرامة للحكومة .

هز الخواجة رأسه مقتنعا : إنه ليس غريبا عن الفلاحين . إنه يعرف طباعهم ولذلك فقد صمم على أن يمر وأن يخالف ما أشار به أبو عزوز فلن يصرخ في وجوههم كما قال ناصحه بل سيسلك سبيلا أخرى سيحاول أن يعدمهم وأن يغدق عليهم يوم مروره وسيكون لقدمه دائما تذكار طيب حتى إذا راوه رفعوا الفتوس تحية لمقدمه وحبا فيه ..

\*\*\*

وفي ضحا اليوم الثالث كان الاثنان يمران بين الأنفار لتفقد العمل وعندما أهل الخواجة بترو على أول مجموعة وكان فيها نحو ثلثمائة رجل هللاو المقدمه .

— هيه . . الخواجة بترو . . هيه ييه ..

ورأى الخواجة الفتوس ترفع في الهواء وكذلك الكريكات . . وترك الرجال عملهم وأسرعوا إليه . أسلحتهم في أيديهم كأنهم يسارعون إلى معركة وشيئا فشيئا بدأ الخواجة يتبين موقعه . فلم يكن على الوجوه المكدودة علامات ترحيب بل كانت علامات غامضة . أراد أن يتكلم فلم يستطع . غابت عنه كل أنواع الكلمات . إلا كلمة واحدة هي : « أبو عزوز » كان يهتف بها ويكررهما كابتهاال داعم . ولعلت في الشمس الفتوس والوجوه والعرق فشرع الرجل أن ما أخذه منهم « بالتقسيط » سيدفعه فورا . . والدفع فورا شيء مخيف خصوصا إذا كان « عمرا » . .

وارتفعت في الفضاء فجأة عصا من الخيزران كانت ذات قوة كعصا موسى .



لمعت تحت الشمس كما لمع العرق والحديد . وجعل أبو عزوز يهوى بها على  
رعوس المتجمعين وأجسامهم بلا تمييز تقع كما تقع والجمع ينحسر أمامها مثل  
جزر سريع حتى وجد الخواجة نفسه في فضاء أمين مع الرجل الذى دافع  
عنه . ثم انهال عليهم بعد ذلك أبو عزوز لوما وتأنيا وعاد سريعا بالرجل الذى  
لا يكاد يتناسك .



كان (بترو) يرتعد تحت الأغطية فقد أصيب بحمى أحس حرارتها في كفه  
أبو عزوز وهو يودعه عائدا إلى العمل وعلى شفثيه ابتسامة ترفض الشكر الذى  
يردده الخواجة المحموم .

وفي منطقة الخيام كان الذين أصابتهم عصا أبو عزوز يتقدمون إليه واحدا بعد  
واحد ليأخذوا من مال الخواجة تعويضا عما أصابهم . . الكدمة بجنيه والخدش  
بائنين والبطحة بخمسة .

وكان هذا الاتفاق السابق لمرور الخواجة مع « أبو عزوز » وقبله بعض  
الناس . أما الذين لم تصبهم العصا فقد حصلوا على نفحه كما اتفق . وأصبح أبو  
عزوز الخليفة للمقاول الراحل بعد أن نجى حياة « بترو »

وتقدم إبراهيم الرقاص آخر الناس جميعا . كان قد عصب جبينه بمنديل مخطط  
وعلى فمه الواسع ابتسامة غير مبالية لا تعبر عن الألم . كان فيها سخيرية من يترفع  
وهو محتاج . ووقف أمام أبو عزوز :

— مبروك المملكة ياسيدى . هل ترى جبتهى ؟

تحت الرباط ارتفاع مثل الدمى ، نظر إليه أبو عزوز وقال له بعد أن ملأه  
الشك قال بصوت زاهر :

— ارفع الرباط يارقاص . .

وحل إبراهيم الرباط من على جبينه . . كان تحته بعض أوراق خضراء من الحقول لاصقة بالجلد ..

— ارفع هذه الأوراق أيضا لنرى الجرح الذى تحتها . .

ابتسم إبراهيم وقال بهدوء غير مبال :

— لا داعى لأنك لن ترى الجرح ولو رفعت الأوراق .

— لماذا ؟

— لأنه ليس فى جلدنا . بل فى قلبنا . .

وتحسس شعر ذقنه النامى واستطرد فى ابتسامة :

— ضحكك على الذقون .

ثم رفع الأوراق الخضراء عن جبين لا جرح فيه فسحب أبو عزوز عصاه الخيزرانية لكن إبراهيم أشار إليه بيد ليس فيها اضطراب وقال بصوت غاية فى الهدوء :

— لا . . حاسب . . حاسب . .

— ماذا تقصد يا ولد ؟

— أقصد أن تحاسبنى على الأيام التى عملتها . . والسلام عليكم يا عم . .



وبعد بضعة أيام كان هدوء الحارات فى القرية يردد صدى صوت جميل تعرفه النساء فى الدور يقول صاحبه الذى يمشى مختالا وقد شد حزاما على وسطه — يقول بهدوء من عاد من غربة طويلة : « أبيض النحاس وا . . بياضى النحاس » .

صرویت

هو فى هذه الليلة يجلس فى الفناء الواسع على مقربة من الباب الخشبي المصمت فى نوبة الحراسة . . تلك التى تسمى فى اصطلاحات الدواوين « بالتوبشية » . . يشعر بحرارة الصيف ويضع قطعة من الثلج فى كوز يأخذ منه عدة جرعات كلما أحس بالظما .

وهو فى هذه الليلة يشعر أنه ظمآن باستمرار . لا يكاد الماء يشفى غليله . . يلقي نظرة عبر الساحة وهو يدخن ثم ينظر إلى النجوم ويعود فينظر إلى الساحة تلك التى يراها مزدحمة بالناس معظم أيام الأسبوع . . كان فيها حديقة موازية للسور ظلت تتضاءل عاما بعد عام حتى اندثرت وفى البقعة التى كانت تقف فيها إحدى شجيرات الزينة نصب صاحب « البوفيه » كشكه الخشبي . أما الحديقة فقد دثرتها أقدام المتخاصمين فى هذه المحكمة ولم يبق مكان النجيل الأخضر إلا التراب الناعم وعليه أن يرشه حتى يحمد فلا يثور غبارا .

وفاحت من الكشك رائحة تفل الشاي المرمى على الأرض وخيل إليه أن الصمت خيم على المكان فجأة وأنه كان منذ دقائق مليقا بالناس . ذلك لأن صورة ازدحام المتقاضين كانت لا تزال حاضرة كأنه يراها . وصورة القضاة وهم ينصرفون تسبقهم أو تتبعهم حقائب مليئة بمشاكل . كثيرا ما رأى هذا الحارس أصحابها وهم فى الفناء يتحدثون فيما بينهم عنها بحماسة تؤكد أن الحق شيء نسبي مادام خارج تلك القاعة . .

وعند ذلك تنهد هامسا « من فينا على حق ؟ » عاوده الظما فجزع شيئا من الماء المثلج وعاد ينظر إلى النجوم . ولم يدر لماذا عاودته فى هذه الوهلة ذكرى حادة تؤله . وقعت له وهو ابن خمسة وعشرين عاما . مضى عليها عام واحد ولكنها تعاوده فى فترات لا بد مناسبة لأن لكل شيء سببا . وها هى ذى

الليلة تلح عليه .

. . صورة امرأة في ربيع الربيع من العمر على جسمها جلاباب مفرد .  
وحيد . . تصرخ في وجهه وهى منحنية إلى الأمام وتقول له كلاما لا يكاد  
يصدقه . .

ووقعت عينيه بعد لحظات من هذه الأفكار على مدخل المبنى . . على  
مدخل المحكمة . . فهناك بهو صغير بسلا لم مزدحمة على اليمين وعلى الشمال  
بعقود وسقف زينا نبات متسلق فيه أزهار بنفسجية — كان كذلك ذات  
يوم — ثم فعلت به أيدي المتخاصمين ما فعلته أقدامهم في نجيل الحديقة .  
تحول بمرور الأيام إلى حطب ثم أنزل من فوق سقف البهو وها هو ذا قد أصبح  
عاريا يحتفظ بصدى كلمات لهم لو أنها أشخاص ما استطاعت أن تعيش  
متجاورة ولدة يوم . .

وعاد يقلب قطعة الثلج في الماء . ثم ألقى نظرة طويلة على البهو وتأمله وهو  
عار من ثيابه الخضراء وعلى أعمدته بوضوح في النهار بصمات أصابع لناس  
كانوا يجثمون أوراقا . ولم يلبث أن سمع وراء بابه في الداخل شيئا يسقط ثم  
يحطم ، وكان للسقوط صدى واضح جعله يحس بمسئولية من يحرس شيئا .  
وعليه على الأقل أن يتبين الموقف حرصا على ذاته هو إذا كان أهلا للمسئولية  
التي يسهر من أجلها .

من الغرفة الواقعة بجوار الباب الخشبي المقفل المصمت والتي سينام فيها  
طول ليلته — مشى قاطعا الساحة المتربة التي كانت تغطي بالنجيل يوما ما في  
بعض نواحيها حتى إذا ما وصل إلى البهو ذى السلمين اختار الشعبة اليمنى ثم فتح  
بابه ودخل . وأشعل النور في الصالة التي تليها وتأمل المكان فلم يجد سوى  
المصمت ذلك الذى أحس وكأنه شئ يكاد أن ينطق . ووقف في المكان برهة  
لأنه لم يستطع تعيين مكان الصوت . وأخذ قلبه يدق . ثم ما لبث أن أطفأ

النور وولى ظهره خارجا . غير أنه أحس بالخوف . أحس بأن ظلام الصالة قد ولد في الحال شيئا لم تره عيناه . فعاد وأشعل المصابيح ووقف ثم عنت له فكرة جديدة هو أن يفتش على بعد آخر . . . وكان أقرب مكان إليه هو باب إحدى القاعات . دفعه فانفتح وتحسس زر النور بيد مضطربة فتبدد الظلام في الداخل .



بدت له القاعة أوسع مما كان يراها في النهار . يتنفس فيها الصمت بثقل وتفوح في أرجائها رائحة جبر وهناك في ركن قصي منها وجد كتلة من أديم سقفها قد سقطت . كتلة كانت معرضة لذلك منذ أمطار الشتاء المنصرم فوق سقف القاعة المكشوف . لكن ذلك لم يكن كبير الخطر للعين . وهي الآن قد سقطت على كل حال والمكان خال من الناس . .

وبدت له مهابة المكان مضاعفة بل أكثر . . . كأن الأماكن أقدر على احتفاظها بالزى والشخصية ربما أكثر من الإنسان . كذلك بدت قاعة الجلوسات . فنسى الرجل تلك الكتلة التي سقطت على أحد المقاعد ووقف يتأمل شخصية القاعة بالليل .

كان هناك مصباح اندلسي يزين السقف من وسطه . وحوله في أماكن متفرقة عدة مصابيح من طراز عادى . لكن المصباح الكبير كان مضاء . . وفي بعض الأركان ركدت ظلمة . أما المنصة التي يجلس عليها القضاة فقد بدت رغم خلوها وكأنها قادرة على إصدار حكم . .

« على من يصدر هذا الحكم ؟ » . .

ولعن شفتيه لأنه أحس بالظما . وعاودته ذكرى حادثة وقعت منذ عام . امرأة في ربيع الربيع من العمر عليها جلباب مفرد تتكلم معه بغضب وحاسة

وصدرها يهتز تحت الجلباب . وخيل إليه أنها واقفة أمام المنصة تقول الآن ما قالته له منذ سنة ثم تختفي كأنما ابتلعها الأرض .

لم يدر لماذا استمر الخوف . أحس أنه من نوع مخاوف المغامرات . . . مجهول ترجع فيه اللذة والسلامة . ولم يدر لماذا رفع كفيه وصفق . . وهاله فجأة أن التصفية بدت ضخمة ضخمة . كأن المرثيات في هذه اللحظة تحت « عدسات » والأصوات خارجة من « مكبرات » . .

ثم ود لو أنه سحب كوز الماء المثلج معه . لو أنه وضعه هنا ليشرب حتى يفرغ مما عن له أن يفعله . لكنه تناسى ذلك . وعاد وصفق . روعه الصوت لكنه على الرغم من ذلك جرب شيئاً آخر . صاح وهو واقف وسط القاعة قائلاً كما يفعل « الحجاب » : « محكمة » .

رن الصوت بطابع غريب . بدا في سمعه وكأنه لا يمت بصلة إلى صوته الأصلي . شد ما انفصل هذا عن ذاك واعترب الفرع عن الأصل . . كان كأنه صوت رجل آخر ارتاع منه هو شخصياً . ولم تستطع القاعة أن تتشرب الصوت ببساطة فقد علق في أرجائها كأنها شرقت به . . كأنها لم تسمعه من قبل آلاف المرات . وما لبث الأثر أن تغلغل في نفسه . . فقد بدأ يشعر بالحنوع يشعر بموقف من سيق إلى هنا لا من دخل بمحض اختياره . . وعادت من جديد تلك المرأة الشابة بجلبائها المفرد . منحنية إلى الأمام وثوبها مبلول يكاد يلتصق ببطنها وفخذها . تتكلم وصدرها يهتز . لكنها في هذه المرة لم تكن متجهة له . كان ظهرها له . لأن وجهها كان لمنصة القضاة . وكانت تحكى لهم الحكاية .

واقترب هو من المنصة ليرى آثار وقع كلماته على وجوههم . . لم تكن منمقة ولا فصيحة مثل كلمات المحامين : بل كانت في صدق كلمات الأطفال حين يعبرون عن مشاعرهم . . وكثير من كلماتها لم تكمل حروفه

لكن الغريب أنها كانت شديدة الأثر على السمع والقلب . وربما ..  
كلمة . . وضعت مكان النصف الثاني من حروفها دمة أو ضحكة  
مخطوفة . . وكل هذا كان يؤدي أكثر مما تؤديه الحروف . .

وخيل إلى الرجل وهو واقف في مكانه أن المنصة عليها قضاة . وعندما  
تجسد له ذلك الخاطر لم يلتفت وراءه لأنه كان من المؤكد أن سيرى مقاعد  
الجمهور وقد غصت بالحاضرين وشعر أن ما حدث منذ عام مضى قد حضر  
بكل تفاصيله وأنه بإحساس الذنب والأسى والخوف والرغبة في التطهر يتلقى  
الجزاء — شعر كأن كل هذا جرعة ماء شربها قبل أن يدخل القاعة .

وحملق إليه قاض بدين أبيض الوجه أصلع تحت عينيه القويتين نفاختان  
تزيدهما مهابة وجعل يسأله . .

لم يرد على سؤال من أسئلته الكثيرة . تركه يسأل كيف يشاء . لكنه في  
واقع أمره كان يملك إجابة لكل سؤال ، نعم . . وبعدما فرغ القاضي من  
أسئلته أطرق هو إلى الأرض . . سكت مليا وكأنه يسمع من خلفه أنفاس  
الناس . بعضهم يشهق وبعضهم يتنهد وبعضهم يكتم أنفاس نفسه . لكنه  
ما لبث أن قال :

« لقد نسيت كل الأسئلة التي وجهتها إلي يا سيدي . . لكنني لم أنس  
الحكاية . . لا أرى وجوه الناس ولذلك فأنا أنظر إلى السقف . . إلى أوجه  
الكلام إلى أعلى . . إلى أحسن جهة يرسل إليها شيء . . أما هي فليست  
قضيتها أعلى منها . . وكل الذين يجلسون ورائي يربطهم بقضيتها فضول أكثر  
. مما هو تضامن إنساني . . إلى أحبا ولذلك تزوجت . . إنني لا أرى وجهك  
يا سيدي القاضي فقد تكون ساخرا من كلمتي لكنني عرفت أن كل الذين  
يجبون زوجاتهم تزوجوا بعدهن . . إن الشيء الضروري الثمين إذا غاب  
لا يجعلنا نعرض عن كل شيء ولكن يجعلنا نبحث عن بديله بين أخس



الأشياء . . قد يكون كلامى أروع من كلام المحامين لكنها ومضة . . من أثر ما أحس به طول السنة . . إن منصبك يعطيك القوة على ضبط الميزان وأنت ممسك به على المنصة . . أما بعيدا عن هذا . . فأنت مثلى . . الإنفعال يرعش أعصابك فيضطرب كل شيء . لكننى طوال السنة أحس أن هذه المنصة التى تجلسون عليها موجودة فى داخلى . . . وعندما آتى وأراها هنا يخيل إلى أنها خرجت خطأ . لكنك يا سيدى القاضى لا تملك أن تحكم على بما سأحكم به على نفسى . . إن حكايتها لك — أقصد ما حكته السيدة — لابد أنها على صدقها أثرت عليك . لأننى أنا شخصا وأنا شريكها وأول شخص شهد ما حكته — أنا شخصا تأثرت بما هو فوق طاقتى وإن كنت خصما لها . . لذلك فأنا أتكلم ورأسى إلى فوق ووجهى إلى أعلى لأن هذه الجهة أعظم الجهات الأربع . . أعظم من اليمين والشمال والتحت .

عندما دخلت عليها مساء ذلك اليوم كانت نفسى متعبة . كنت أحس فى داخلى بحزازات من صديقى . . جارى . . وزميل صباى الذى لعبت معه فى القرية كل أنواع اللعب . . طاردنا الضفادع والضباير ولعبنا الكرة واستحممنا فى النهر . . وسرقنا معا . . تلك السرقات المباحة عند الله وعند القانون . . أطفال يأخذون من الحقول قدر ما تأخذهم العصافير من الأجران . . ثم رحلنا إلى المدينة . . وتزوجت ابنة عمه . . لم يتزوج هو . صديقى هذا وجارى . . ثم . . كان لزاما على أن أقوم له ببعض خدمات نظير ما يقرضنى من مال . . فكانت زوجتى تغسل له ملابسه مع ملابسى . . و . . وتكويها . . ثم ، بدأت أرى فى العيون ما أفرغنى . . لكننى لم أصل بالرغم من محاولاى إلى أول الخيط بتاتا . فى الخارج لا أرى شيئا . وفى داخلى أرى أشياء كثيرة . . لكن . . هل تسمح لى بجرعة من الماء . . لا داعى فإن عطشى لن يطول . عدت مرة ذات ظهر فرأيتها فى

المسكن . جالسة على الغسيل . عليها جلباب وحيد مفرد .. مبلول . في ربيع  
الربيع من العمر . وقد انكبت على ملابس تغسلها .  
وقفت خلفها أكلمها . كانت بادية السهوم . لعلها كانت متعبة . لست  
أدرى .. أنا مسئول عما في داخلي .. لكنني حملت وحملت . ظهرها لى وهى  
جالسة وأنا واقف . كان بين يديها قطعة ملابس داخلية تغسلها بعناية .  
تنشرها بين يديها لتأكد من نظافتها ثم تعيدها إلى الماء . حيث كفها لا تكاد  
تطبق حرارته وقد احمرت حتى أوشكت تتورم .

أحسست بشيء غريب . شيء هو امتداد لما مضى . ولما سألتها  
عن !! .. قالت إنها ملابسه .. أحسست بأخلاق من الضيق والضجر  
والغيرة . فقلت لها ما جعلها ترمى بقطعة الملابس بعيدا عن الطشت ثم قامت  
واقفة تكلمنى محتدة . وجهها لى وهى منحنية إلى الأمام . تدافع عن نفسها  
وهى فى وضع غريب . جلباب مفرد .. لاصق ببدنها فى الأماكن . ووجه  
ملتهب من الغضب والحرارة . ودموع فى العين .. ورعشة على الشفة .

وقد توحى حرارة الدفاع بالشك . فتبادلنا التهم . أنت السبب .. هو ابن  
عمك .. لو شئت من أول الأمر لتزوجته .. بعض الناس لا يريدون إلا آخر  
الأمر .. لا داعى لهذا الكلام فتتيجته مرة .. اذهبى فالبسى شيئا تحت هذا  
الجلباب إن كنت تخافين على جسمك .

وعندئذ يا سيدى بلغ الأمر نهايته فصرخت فى وجهى وشقت ثوبها : وكان  
المنظر مؤسسا . فلم أدر ماذا صنعت . غير أنى فى نهاية الأمر وجدت جرحا  
صغيرا من أظافرها فى خدى الأيسر .

ثم دخلت الحمام لتستحم وتلبس ثيابها .. فلم .. تخرج .. قتلت  
نفسها .. أنا الذى قتلتها .. أنا .. الذى .

وأجهش بالبكاء . وأنزل نظره إلى مستوى المنصة . ومن خلال الدموع رآها خالية . شعر أن الأمر لا يزيد عن كلام « نوبتشي » في قاعة محكمة . وليس على المقاعد جمهور . ولا في الغرفة اتهام ولا دفاع .. وعادوه الظماً . وتلفت فإذا بالمصباح الأندلسي ثابت كأنه أثقال . لكنه ما لبث أن أحس بالحسرة . أحس أنها أوحشته . كم يتمنى أن يراها .. لم تلهه عنها زوجته الثانية ... أحس بالخوف وعادوه الشعور الأول فما لبث أن سارو لم يخرج من الباب ولكنه مشى حتى صعد المنصة . وهنالك جلس في الوسط تماماً مكان القاضي وحلق في السقف . لم ينظر إلى أى اتجاه آخر ثم دق عدة دقات بقبضة كفه كما يدق القاضي بالمطرقة الخشبية . ثم ما لبث أن هتف بأعلى صوته : « براءة .. براءة .. » .

رن الصوت في المكان الخالي فنزل يجرى وهو يحس بعطش شديد إلى الماء الملىء بالثلج في خارج القاعة .



تجربہ شخصیہ

« الليلة برد قارس وليس من المحتمل أن يزورنى أحد . على كل حال هذه فرصة للتفكير . أو للقراءة أو لإعداد مقال الأسبوع القادم .. » .  
وعند هذا الحد سكت . ثم أخذت أفكاره تتوالت من جديد من مكان إلى مكان . وهو متدثر بأغطية من الصوف جالسا على كرسى مريح . وها هو ذا قد أصبح فى الشقة وحيدا بعد أن انصرف من المنزل ذلك الشاب الذى يقوم على خدمته لأن والده مريض .

وعندئذ قال فى نفسه : « والده أولى منى برعايته وإن كنت حقيقة قد أحتاج إلى شئ لكن ذلك لا يهم » ونظر حوله . فى الحجرة المقابلة مكتبة له . وفى الحجرة التالية سرير لم يرتب قط إلا بيد ذلك الشاب ومن قبله شاب ثان ومن قبله أيضا شاب أول .. سلسلة شاقة جعل يتذكرها بعد فوات الأوان لكنه لم يكن يشعر بالندم فلقد وهب حياته لناس آخرين منهم من يعرفه ومنهم من لا يعرفه وهو يشعر الليلة شعورا مؤكدا أنهم جميعا أبناءه ..

ثم ما لبث أن انصرف عن هذه الأفكار . ونظر إلى منضدة فى الركن وابتسم كطفل عثر فجأة فى مخبأ فى البيت على لعبة كان قد نسيها . فعلى هذه المنضدة وضعت فى طبق فطيرة صغيرة .. محشوة بالفواكه وموشاة بها . ومن الممكن أن يأكلها كلها لأنه يحب هذا النوع من الفطائر ومن الممكن أن يكفيه نصفها ويترك النصف الثانى حتى الصباح

وفرك كفيه وفكر .. الدنيا برد .. لو أنه يستطيع أن يصنع لنفسه فنجالا من الشاى الساخن !!

ويقطع منها ويشرب ويمضغ ويقرأ ويفكر فى هدوء الوحدة التى يتمنى ألا يقطعها عليه زائر . وتذكر كتابا . فقام يبحث عنه . ولسبب غير واضح ضل

طريقه إليه فلما تعب عاد إلى مكانه من جديد وجلس يدخن . عيناه معلقتان بالشباك الذى استرخت عليه ستائر لا يعبرها صوت من الحى الهادى .. وعندئذ شعر بالاسترخاء : شعر كأنه يريد أن ينام . لكنه أحس بحاجة أكبر إلى فنجان من الشاى الدافى .

وعندما هم بالقيام سمع دقة جرس الباب فابتسم وسأل نفسه : من هذا يا ترى ؟ وقام ففتح فدخل ثلاثة من الأصدقاء الذين يحملون ذكريات عمر مشتركة .. ذكريات اتفاق واختلاف فى رأى وحب وتقدير لا يفسده أن يختلفوا . فقال لهم عندما رآهم : كنت أظن أن برد الليلة سيجعلنى وحدى . لكن كيف جئتم ؟ فقال أحدهم وهو أكثرهم مرحا : إن لذلك قصة طريفة يا أستاذ فأنت تعلم أننا نسكن ضاحية المعادى وأن بيتك فى وسط القاهرة وأننا هنا الآن ، وربما أننا لم نرك منذ عشرة أيام وبما أننا أيضا مفلسون وفى أواخر الشهر فقلنا نمر عليك ونراك . لعل وعسى . . وأنت تفهم الباقى . فضحك متهللا . وتذكر « نادرة » المطعم حين دعوه لتناول العشاء ثم احتالوا عليه حتى دفع الحساب . لكنه قال مشيرا إلى الركن حيث الفطيرة الشهية :

— هذه الفطيرة كما ترون . كنت محتفظا بها لنفسى أو .. أو على الأكثر لشخص آخر معى . فهى طعام لاثنين فقط . أما الآن بعد أن حضرتم وليس عندى غيرها فقد أصبحنا أربعة . وكلكم يعرف كيف تقسم هذه الفطيرة المستديرة .. بنفس طريقة قسمة الرغيف . نصفان أولا ثم كل نصف يقسم إلى نصفين .. والأمر لله يا سادة .

فرد أكثرهم ظرفا :

— ما أحلى هذا ! ! ولو أنها لا تكفينى وحدى . أنت مفكر وتعلم أن المفكرين لا يأكلون . إن غداءهم فى داخلهم وليسوا محتاجين إليه من

الخارج . فهلا تفضلت وتركت لى نصيبك منها .. لا تنظر إلى ساخرا .  
فكثير من الآباء يحكمون على أنفسهم بالحرمان بين أولادهم الكثيرين فاعتبرنا  
أولادك فى هذه الليلة وتفضل بحرمان نفسك مما تشتهى ولا تحزن فهى مسألة  
شائعة .

فرد وهو يدق كفا بكف :

— لكننى لست مسئولاً عنكم . أما الأب الذى تقول عنه فهو مسئول .  
قال ثالث :

— لماذا إذن سمحت لنا بالدخول . لو شئت لترك الباب مقفلاً فى وجهنا  
وارتحت من متاعنا وأكلت الفطيرة وحدك ، أو أبقيت نصفها حتى  
الصباح ؟

فقال رب البيت :

— على كل حال هذه بلوى محتملة ولو أن فيها مشقة على . ليقم أحدكم  
فيصنع أربعة فناجيل من الشاى ولا ينسى أننى أحبه خفيفاً حتى أستطيع  
النوم ..

وقام اثنان منهم إلى المطبخ . أخذ أحدهما يعد الشاى على حين رجع الثانى  
بسكين . ودخل وقد رفعها فى الهواء مثل السيف وهو يهتف :

— اتركنى عليها لأجعل الشرابات تسيل من جسمها الحلو . . ولن أجور  
ولن أظلم . . نحن أربعة .. لكل مناربعها . ما أحلى وجهها المدور » ثم همس  
له « نحن اثنان الآن فلماذا لا نأكلها فى هذه الفرصة وهم هناك يصنعون  
الشاى . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .. لترك لهما الشاى ولناكل نحن  
الفطيرة أنا وأنت .. هلم .

رد رب البيت قائلاً : هذا ما يحدث دائماً إذا ما تراحت الأفواه على شىء .  
ولعله كان من الخير أن أخفيها عنكم . لكن بما أنكم اعتبرتم أنفسكم أبناءى  
فليأخذ كل منكم قطعة صغيرة قدر ما يأخذ أخوه . آه .. هل تسمع المطر فى



الخارج ؟ ! ثم قل لى .. ماذا عمل ابنك السابع فى امتحان نصف السنة ؟  
فرد الضيف :

— إنك عالم نفسانى . تذكرنى بهومى لأنسى الطعام . تثير أشجائى  
لصالحك الخاص . « وضحك » إنك على حق فأنا عندما أنادى « حسام »  
أنسى فأقول يا « عصام » . وإن كنت فى الحقيقة لا أقصد إلا أن أنادى  
« همام » وعندما أهتدى إلى الاسم المطلوب الذى أريده أجد الثلاثة أمامى  
كالغفارىة وعندئذ يبدأ كل فى رفع شكوى أو طلب شىء .. آه .. تريد أن  
تنسبى الشىء الجميل بإثارة همومى .

فعاد رب البيت يضحك وسمعت وقع أقدام رجل غير مدرب /يحمل  
الصينية عليها أربعة فناجيل دخل بها مرتبكا فسالت حوافها فلما حذروه زاد  
إرتبأكه وسناد المكان ضحك لرجال ناضجين شغلهم جد الحياة سنحت لهم  
فرصة للهو فاغتتموها .. ووضع الشاى وأمسك السكين أبو السبعة ليقسم  
الفطيرة فقال له أحد الضيوف مازحا :

— لا . دعها لى . أنا أكثر منك عدلا لأننى أقل منك رغبة كما أننى آكل  
كل أسبوع من هذا النوع . أما أنت فلا تعرفها إلا فى أعياد الميلاد يا صديقى .  
وقفا يتنازعان السكين وهم يضحكون وطال النزاع فما أخرجهم منه إلا  
دقة جرس الباب مرة أخرى ، عندئذ ضحك رب البيت وانتبه الضيوف .  
وقال أحدهم : « هس . أذن من طين وأذن من عجين . المفروض أنه لا أحد  
هنا وأن الأستاذ قد نام » .

فقال رب البيت :

— لا افتحوا فرما كان الشاب الذى يقوم بأمورى ولا تنسوا أن والده  
مريض . وربما كان محتاجا إلى شىء ما .  
فذهب أحدهم يجرى . وعندما فتح الباب له ارتفع صراخه . فأخذ

الرجال الثلاثة في داخل الشقة إذا أيقنوا أن في الأمر مكروها . لكنهم ما لبثوا أن عرفوا أن سبب ذلك هو دخول ضيف خامس سيشاركهم في الفطيرة التي لا تكفى إلا ثلاثة منهم على الأكثر .

ونظر الضيف الجديد مبهوتا . وقال : ماذا أصابك يا أبا حسام . حرام عليك افسح لى الطريق لأدخل وأقفل الباب .. ورائى الدنيا برد والسماء تمطر . وهناك رعد وبرق . ولعلى أجد شيئا أستدفىء به . فقال أبو حسام متسائلا :

— ليس هذا مهما . المهم أن تقول لنا : لماذا جئت في مثل هذا الجو ؟ فقال :

— عذر متعلق بالجو أيضا . والله لا شيء إلا الجو . أوه ... أعطني أولا نصف هذه الفطيرة وفنجالا من الشاي .. لا تصرخ تمهل فإننى سأقول السبب .. السبب هو أنني مسافر بغدا . وجعلت أنا وزوجتى نبحث عن معطفي فلم نجده لا في السماء ولا في الأرض . فجعلت أتذكر حتى رجعت أنى نسيته هنا ليلة أمس . ولذلك جئت . قال رب البيت :

— إنك على حق .. إنه هنا . دفعه أمس أنساك المعطف وذكرك به برد الليلة . ونحن نذكر دائما ما نحتاج .. ولذلك فيجب ألا تنسى المعطف بالفطيرة هذه التي تراحمت عليها حتى كدت أضيق بكم . فقال أبو حسام :-

— المشكلة ليست في المعطف بل المشكلة في الفطيرة . نحن نريد مهندسا ليقسم لنا هذه الدائرة الصغيرة ببرجل إلى خمسة أقسام .. يا إلهى .. كأن المشكلة تطاردنى . كنت متحيرا في شيء من هذا القليل أنا وزوجتى من أجل أولادى السبعة لكنها مشكلة لا يحلها مهندس ، ولو أن المهندس يحلها لرجع

إلى عقلى الذى ضاع .  
وضحكوا . وبدأ هو نفسه يقسم الفطيرة إلى خمسة . وقام أحدهم ليصنع له فنجالا من الشاى لكنه تخير فى الأمر فقال له رب البيت :  
— مهلا .. لا تتعب نفسك . اقسمها على أربعة ..  
فرمى السكين وصفق ثم عاد فأمسك بها وسأل : وما السبب ؟ فأجاب رب البيت :

— لقد تنازلت عن نصيبى لأننى فى الحقيقة أكلت واحدة منها وحدى ..  
وليس لى حاجة إلى شئ جديد ، وكل ما أحتاجه هو فنجال من الشاى .  
فرد أبو حسام :

— مرحبا برأيك ! .. ما أعظم هذا !! إنك تشبهنى أو أنت على الأصح تشبه زوجتى !! أقصد أننا فى بيتنا نتنازل عن أشياء ضرورية مدعين عدم أهميتها . ومشكلة هذه الفطيرة كم مشكلة البيت الذى سأذهب إليه . وأنت أيها السيد نسيت المعطف لتحرم الأستاذ من نصيبه ... هيا كلوا قبل أن يبرد الشاى !!



وبدأ الأربعة يأكلون . وبدأ الجرس يدق لكن أحدا منهم لم يحاول أن يذهب ليفتح الباب . وألح الطارق كأنما كان يستنجد . فلما هم رب البيت بالقيام ليفتح قال لهم أبو حسام وصوت المضغ يقطع كلماته بعد أن قطع الطريق على رب البيت :  
— إن فتحت له الباب كنت مسئولاً عن طعامه ... هذا مفهوم طبعاً . وبما أنك لا تملك سوى ما قدمته لنا بعد أن حرمت نفسك من أجلنا فلا تفتح الباب لأحد .. حرام أن يتبع بنظره ما فى أيدينا .. لال ن تفتح له .. كلنا أصحاب مصلحة فى اعتراض طريق قادم جديد .. وهذه الحماسة التى أكلمك بها من مرارة تجربة شخصية . دعه يطرُق الباب حتى يئأس . فهو مادام فى الخارج فلن

يلومك إذا لم يأكل من هذه الفطيرة لكنه بعدما يجيء فيصبح حقه فيها مقدسا .. مثل حق أى منا .. لا تتضايق فقد فرغنا الآن من مهمتنا .. « وضحك » ها أنت ذا ترى الأطباق فارغة وكذلك الفناجيل .. آه .. والآن اذهب يا رب البيت وافتح له إن شئت ، فنحن الآن فى أمان .  
لكنهم عندما صمتوا وأرهفوا السمع كان الجرس قد كف عن الرنين .  
فلما ذهب أحدهم وفتح الباب ليتأكد وجد البسطة خالية والظلام مخيما عليها .. ولا أحد . فلما عاد يعلن إليهم ذلك قال رب البيت لأبى حسام مداعبا :

— تعلم الناس وتنسى نفسك . لماذا وأنت ما هو فى الحساب هكذا تقع فيما تنهائى عنه وتفتح الباب لمن لا طعام لهم عندك مع أننى يا أبا حسام لم أقع فى شيء من هذا .

فرد عليه قائلا :

— لا شيء أغلى من نصيحة من جرب حتى لو لم ينتفع هو بتجربته .

فرد أحدهم سائلا :

— وكيف ذلك ؟

— فقال أبو حسام :

— لأن حسرته على نفسه تجعل دعوته للآخرين أشد حرارة وبقاء وصدقا .



## مؤلفات الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

« ولكن يمكن الجزم منذ الآن فصاعداً بأن محمد عبد الحليم عبد الله قد فرض نفسه كروائي لدلتا مصر ؛ إنه روائي الدلتا المصرية ، أى ذلك المثلث الأخضر المعلق على خريطة القطر بواسطة أكبر مدينتين في قارة أفريقيا » فمن البحر الأبيض المتوسط حتى جبل المقطم ، يسبح عبد الحليم عبد الله لتلك الأرض الخضراء الخصيبة المليئة بالخيرات والمتناقضات أيضاً : الإسكندرية والقاهرة والريف المزدهم وقد سقاها النيل .. إنه روائي الدلتا الداخلية ؛ لأنه يقودنا إلى داخل الإنسان ، سوف تكتشف في أعماله صفحات تصف الشواطئ التي تقصفها الرياح ورمالاً ساخنة هجرها الحب ، غير أنه يضيف على الإنسان قوة رائعة وسخية تسرى فيه كالنيل الذي يهب الحياة » .

من دراسة للمستشرق : جوردان موثو ( ترجمة : سمير وهبي )

قرش

- لقيطة ( ليلة غرام ) : جائزة المجمع اللغوى لأحسن قصة ، جائزة  
وزارة الشؤون لأحسن فيلم « ترجمت إلى الفارسية . ٣٥٠
- بعد الغروب : قصة الفقير الموهوب يشق طريقه بالفأس في  
الصخور . جائزة وزارة التربية والتعليم . ٣٠٠
- شجرة اللبلاب : قصة عذراء أهدت قلبها لشاب متردد شكاك .  
ترجمت إلى الإنجليزية . ٢٥٠
- شمس الخريف : ماذا تأخذ منا الحياة ؟ وماذا تعطى ؟ ، جائزة الدولة  
في الأدب . ٣٥٠
- غصن الزيتون : لا تجعلنا نحب من لا يحبونا حتى لا نشقىنا بالحب  
مرتين يا إلهي . ترجم إلى الصينية .
- الماضي لا يعود : ( مجموعة أقاصيص ) ٢٢٥
- من أجل ولدى : قصة الحب العائلى والمرأة فى صورها الأربع  
أمًا ، وزوجة ، وحبيبة ، وعشيقة . ٣٠٠
- ألوان من السعادة : ( مجموعة أقاصيص ) ٢٢٥
- الوشاح الأبيض : قصة حب جميل .. ولكن هل حققت الأيام منى  
المحبين ؟ ٢٥٠
- سكون العاصفة : ( قصة طويلة ) ٤٢٥
- الضفيرة السوداء : ( مجموعة أقاصيص ) ١٥٠
- اللجنة العذراء : ( مجموعة أقاصيص ) ٢٢٥
- أشياء للذكرى : ( مجموعة أقاصيص ) ٢٧٥
- خيوط النور : ( مجموعة أقاصيص ) ٢٧٥
- حافة الجريمة : ( مجموعة أقاصيص ) ٣٠٠
- الباحث عن الحقيقة : ( قصة طويلة ) ١٢٥
- البيت الصامت : ( قصة طويلة ) ٣٢٥

قرش

- أسطورة من كتاب الحب : ( مجموع أقاصيص ) ٢٢٥  
— للزمن بقية : ( قصة طويلة ) ٢٢٥  
— النافذة الغربية : ( مجموعة أقاصيص ) ٣٠٠  
— جوليت فوق سطح القمر : ( مجموعة أقاصيص ) ١٥٠  
— قصة لم تتم : ( قصة طويلة ) ٢٥٠  
— الدموع الخرساء : ( مجموعة أقاصيص ) ٢٠٠  
— لقاء بين جيلين : ( لقاء المؤلف مع عمالقة القصة ) ٢٠٠  
— الوجه الآخر : ( كاتب القصة ناقد ) ٣٠٠  
— غرام حائر : ( أول قصة للمؤلف ) ٢٥٠  
— حلم آخر الليل : ( مجموعة أقاصيص ) ٢٥٠  
— عودة الغريب : ٢٥٠





رقم الإيداع ٢٠١٨

دار مصر للطباعة  
سعيد جوده السحار وشركاه



مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدقي - البحالة

736

Bibliotheca Alexandrina



مكتبة الإسكندرية



0294236

دار مصر للطباعة  
سعيد جوده السحار وشركاه